طيناء وقصص أخرى

قصص

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب

باديس فوغالي

طيناء وقصص أخرى

قصص

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2009.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-779-1
الإيداع القانوني : 1505 - 2009

طيناء

قصة مدينة في صورة امرأة زئبقية ذات فتنة لا تقاوم مهداة إلى كل عشاق قسنطينة الساحرة الذين لم يولوها الظهر في أحلك أيامها. هي إذن حكاية مدينة في قصة قصيرة.

عبثا حاول الفرار من مداهمة طيفها والتسلي بما من شأنه أن ينتشل بقاياه من أنياب هذا الاغتراب القاسي، فلم يقدر، اغتراب موجع ومؤلم، ملأ حياته بعد هدوء، هدوء من يحيا الحياة بالصورة التي يحياه كل البشر، لاشيء يلهيه عن الكفاح لتوفير لقمة العيش والخلود بعد يوم متعب والخلود إلى راحة يستلذ لحظاتها لبعض من الوقت، لكنه اليوم لم يستطيع إبعاد صورتها، وطيفها الذي ظل يداهمه، ويحاصر كيانه من غير استئذان.

الناس في الخارج يسبحون في الأنس والتسامر تحت أنوار المصابيح المنكسرة في فتور على الطرقات والأرصفة،

يرتادون الساحات والمساحات المهيأة جماعات ووحدانا، وهو يقبع خلف مكتبه في هذه الحجرة العارية يحاول الاستئناس ببياض الورق، وبعض ما تبقى من مشروب شاي قد برد وصار طعمه أحلى بفعل التركيز، أو هكذا هيئ له، يرتشف منه جرعة أو نصف جرعة من حين إلى حين، فيشعر بالانتعاش، ويحس أنه قادر على تجاوز هذه الهواجس تستيقظ في كيانه رغبة شديدة للكتابة، ربما كان يحسب أن ذلك سوف يغالب به الهواجس، والأحاسيس الغريبة التي داهمته، لكن القلم ظل بين أصابعه يرتعش من برودة الكلمات وموت المعاني، ماذا أصابه هذه الليلة؟ ولماذا تبلدت في عقله الرؤى؟ لماذا لا ينسى كغيره من البشر الذين يعرفهم بأسمائهم، وطباعهم، والذين لا يعرف، أهم أحياء وهو وحده حي يشعر بما لا يشعرون؟

آه كم كان يصبو إلى تلك الضحكات التي كانت تأتيه من خلال فتحات النافذة نصف الموصدة، إنه بائس، مكدود ومغبون. المسكين لم يعد قادرا على تجاوز هذه المحنة، والتخلص مما هو فيه من وحدة وضياع.

مات فيه المؤلف، وتلاشت نظارته تحت وقع الصدمة وشرخ التمزق، ومع ذلك حاول تخطي هذه التجربة الاستثنائية المستحمة بالوهم والوحم، ووصم الوسم الذي لا يزول، حاول

أن ينسى، وينسى معها الهموم التي ظلت تحاصره فلم يفلح، لم يكن يعلم أن هذه التجربة التي لم يخطط لها أو يضع لمراحلها حسابا كما كان يفعل دائما مع الجنس اللطيف ستكبل تفكيره وتخدر حواسه بهذه الصورة المأساوية البشعة، لقد كانت تجربة فريدة من نوعها، هزته من أعماق وجدانه، وحفرت في ثنايا حياته أخاديد عميقة، حاول أن يهرب إلى حيث لا تحاصره بطلعتها البهية، وصوتها الشجي، لكنه لم يفلح، هو الآن بين يديها ذائبا وملتاعا وبائسا.

مر عام وعام، والنار بعد مازالت تشتعل في كل بقعة من جسدها اللدن، نار هائجة وطائشة، لا تبالي بالدمار، لا الماء أطفأها، لا الحب، ولا حتى الأنين، كل ما كان فيها جميلا قد غدى، السحر تبدد، واختفت نظارة الوجه المشرب بالعفة والكبرياء، التفت إلى نفسه، رآها حائرة، تألم، اشتدت عليه الآلام صارت أوجاعا مسمارية مدببة الرؤوس تثقب أعصابه بغير هوادة، فتكاد من فرط الوطأة تفجر دماغه، هجره النوم، والكآبة غدت تطوق خطواته أينما ولى وجهه.

ها هي الفتن والمناورات، والإشاعات القاتلة، تعمل عملها الأزلي منذ خلق الخليقة، يتداولها الناس كجرعات الإكسير في كل مكان. وحديث الناس الفتاك، والشكوك،

والارتيابات العشوائية صارت الطبق المفضل الذي يسبق عادة كل الأكلات.

قيل عنها كلام كثير، كلام موجع، كاسر، ومدم، قيل عنها أنها تستسلم لكل عابر سبيل، ولا تتردد، ترمي بطيبتها في أحضان العابرين بغير اقتناء، لقد حكي له يا خيرة النساء، أنك لم تكوني تمانعين، بالله عليك، كيف طاب لك أن تدوسي شرف الأعزاء من الرجال الذين رعوك، وماتوا من أجل عينيك الباهرتين؟ كيف تسنى لك التمرغ في أوحال الدجل والنفاق، وترتدين هذا الثوب المستعار؟ ماذا يقول للطيبين من سلالتك يا عذراء؟

وبماذا يواجه محنته هذه ؟ ماذا يقول لأبنائه وبناته القادمين؟ هلا من رحيق وعذوبة تعيد إليه صورتك الأزلية، وهلا من أمل يحيا به ؟ بالأمس القريب علقوا على باب حجرته : «لا تكن مغفلا يا فتى لقد كانت طريدة للمتعة الرخيصة والفجور».

وحينما خلا إلى وحدته في أماسي الصيف الطرية، وعبر الشوارع التي احتضنته، والحارات الباردة التي سكنت أوجاعه شعر بالقرف والتقزز، فعاد إلى وحدته القاتلة بين حيطان الإسمنت، حتى النافذة الوحيدة التي كان يطل من

خلالها إلى ظلالك صارت تعذبه، بما يترامى إلى سمعه من أخبار يبثها التلفاز، أو تأتيه عبر الفراغ المترامي إلى الأفق المكلل لرؤوس البنايات والعمارات الشاهقة من روائح مخلوطة بالموت، والبارود وزعيق الكلاب الشاردة.

أسمالك تناثرت مزقاتها من هول المحنة على حافتي النهر الخالد، وتهدلت جبة المجبود، ومن شدة الفاجعة تراخت خيوط الذهب المفتول على خاصرتك كالحة بلا بريق، ذلك الذي أبهر الملهمين بسحرك وخصوصية عطرك المعانق للشرفات.

- أين بساتين الزهر والورد وعادات التقطير؟

- وأين زغاريد القدود الممشوقة تحت الملاءات السود؟

لقد مر ربيع هذا العام حزينا، بحث عن جسد كان يعشقه حد الجنون، كي يضمخ مفاتنه بالنسغ والعبق والنكهة الساحرة، وحين أضناه البحث مضى وتبخرت يناعة طلعته بين ما تبقى من القرميد والأجر المتدفق بين أصابع قدميك.

- وأين الموسيقى وترانيم العود الراحلة إليك من قصور الأندلس. لقد كان شذاها بالطرب الأصيل والمواويل الشجية يتردد هنا عند ملكوت العشق الصوفي والحب العذري، فأينها؟ وأين فتيانها والنساء؟ آه من تلك القعدات في مقصوراتك الملفعة بالحياء والاحتشام جيل وجيل، ومطالع

تغامز مواويل تنبلج من حناجر العيساوة، والفقيرات، والبنوتات.

آه وآه من تلك الحلقات الغائمة في سحاب البخور، وعذب التسبيح، والأذكار، لقد كانت شفاء للوجد ولكل البلاء.

وأين الطرز والحرج وجبة المجبود والحلي والحلل؟ وأين اللمسات الراقية وما أبدعت أناملك السخية؟

أين ملمس الفن الرفيع؟ واين بقايا ما كانت تسخو به الموائد، وصينيات الأعياد والمناسبات؟ وأين؟ وأين ...؟ وأين ...؟.

والآن وقد تغير وجه الزمان فغدوت تفكهة للعاطلين والسامرين حول الفراغ وحول الضياع.

فما عساه أن يقول عنك؟ أيقول قد خنت، أو ومقت، أو رضخت للرذيلة وحب الفساد، فماذا عساه أن يقول؟ لا يقول شيئا، أماهم فليقولوا ما شاءوا عنك لأنك وبكل بساطة سوف تظلين كما رسمك في خياله صورة للعطاء والنبل، ومواقف الشهامة التي لا تمحوها الصدمات.

ومع كل هذا وذاك حاول في قرارة نفسه أن يجد مبررا مرضيا يريح به باله من هذا التبدل، والتبدد، والتشظي عبر الزمان بالحلم والأمل. غير أن الحلم حين يراود المرء لا يستشيره ولا يحفزه على التمادي بالتشبث به، يداهمه

بسرعة فائقة كعابر سبيل يسعى إلى مقصده بشغف وحذر، والحلم لم يكن حلما، كان إقلاعا صوب رقعة من الغموض في غير تأمل ولا تخمين وهو لم يكن من الحالمين، قد كان يحلم لكن في بداية العمر الطري، ولما تخطى عقده الثاني، كان رأسه يمتلئ بالأحلام، ويضج بالأحداث حتى يوشك على الانفجار، وكان النوم يهجره بعيدا، ويظل يرقب تقلبه في الفراش حتى إذا ما اطمأن إلى ثقل رأسه وعدم قدرته على بناء وهدم الأحداث، يقترب منه ويغمغم بما يتبقى فيه من جهد وعياء.

نعم لقد كان يحلم حين كان غريرا، أما وقد صخبت حياته بأفكار الكتب ومشاريعه التي لا ترسو على مرفأ للراحة واستعادة الأنفاس فلم يعد يحلم، غير أن هذه التجربة جعلته يحلم، وصنعت منه أكبر الحالمين.

يومها لم يكن سهلا عليه الانشطار، ولم تكن حبيبته «طيناء» ممهدة لهذا الانشطار، لقد ظلت عذراء شريفة، عفيفة لكن الأيادي العابثة أشاختها قبل الأوان، كم كانت جميلة وفاتنة، تأتيه بمبسمها اللؤلئي، ونفثات رائحتها الأنثوية القادمة من أحراش التل تلهمه بالشعر وتراتيل الشموخ والكبرياء، إن عينيها المكتحلتين بدياجي البادية لتقدران على تفتيت الطود الجبار، وقدها المياس حين تتمايل

يمينا أو شمالا كان يعصف بالقلوب، والغنج والدلال معقود باقبالها، وهي تفوح بنكهة العنبر، ورائحة البخور الصاعدة من أعماق الأضرحة وصحون المعابد القديمة المتآكلة الحيطان والقبب.

كانت جميلة فوق ما يتصور العقل، ملهمة لدرجة أن الواحد من هؤلاء الخلق حين كان يفوز باحتضان ملامحها الأسطورية في عز الضحى، وهي تنشر عبقها عبر الزمان والمكان، أو تحت ضياء القمر في أمسيات الصيف، وهي تهتز جذلى للمودة التي تؤلف بين القلوب، تنتابه هالة من الفيض والتجلي، فلا يقدر على بعادها، وكل ما يعسر لديه يهون، كان الجميع يحبها ذاك الحب الموروث عن الخالدين منذ ما قبل الفاتحين.

ليتك تعودين إليه وإلينا أيتها العذراء النظيفة، الشهية، الخجولة، الحلوة في همسها ولمسها، وفي كل الدقات التي نشعر بحسيسها، وصدرك العامر يفيض بالحب والعطف الأخاذ، كم كنا نحبك ونهفو إليك أيتها الفاتنة السمراء، والشقراء في تباعد الفصول والأزمنة، إننا قادمون إليك وجوانحنا تخفق بالود، وبالوجد، الذي لا يزول، سنعود ونبني أعشاشنا كالطيور المهاجرة على أبوابك، سنعود

لنرقص وإياك على إيقاعات الدف والناي، ونهتف باسمك ونحبك ولا نبالي.

سنعود كما عاد في الأزمنة الغابرة «أوديسيوس» إلى حبيبته «بينيلوب» فانتظرينا إنا عائدون. إننا نعلم أنك ما قصرت يوما في توزيع ما تشتهيه الأنفس علينا بالتساوي ونعلم أيضا إن سعة صدرك الدافئ، وطراوة قلبك الكبير لن تقصي أحدا منا من حبك الطاهر العظيم.

ونعلم فوق كل هذا أنك تحملين متاعبنا وهمومنا، وأنت تئنين تحت ذاك الوجه المبضع بمرايا الكذب والنفاق.

سنعود إليك ملتئمين فضمينا، يا امرأة من لفح الطيف، هدئي الغضب الساكن فينا بالصقيع وبالندى، أي نعم ونلتحم في الصدى والمواويل، كوني يا شامخة مرة في العمر حاوية لجنون تشرذمنا، مرة واحدة ونلتئم في الهمس، ونذوب كم نذوب في وهج الوجد، ثم نصحو، وقد ترنحت هيجى بنا المواويل.

كانت تقصد المكان الذي يؤثر الجلوس فيه، وهو اختلاؤه إلى حافة حوض العشب اليانع المطل على النفق الخالد يدخن، وبرفقة شاي منعنع يلاحظ الناس، وهم يتحركون بسرعة مذهلة، أو يختلون إلى بعضهم بعضا في ثنائيات قلما تنسجم وتتناغم، برفقة الشاي كان يشعر بغبطة كبيرة

وهو يسيطر في رؤية «بانورامية» على كل ما يدب عبر هذا الأخدود العجائبي يمر الوقت، ولا يمل تراه في حالة تأمل عميقة، ولو حدجت في أساريره بإمعان لرأيت ملامحه تتبدل بين الفينة والأخرى، فتارة يتقطب جبينه، حتى ليبدو كأنه يعاني اكتئابا حادا، وتارة تنطلق أساريره في غبطة وحبور، وبين هذا وذاك كان سعيدا بخلوته، ومرتاحا لتأملاته.

الشيء الذي لم يكن يتوقعه مما ترتب عن موافقته المبدئية وقبوله قضاء سهرة الليلة خارج مكانه الأليف. كانت وهي تجالسه قوية وهادرة كالشلال المتدفق يفوح من ظلالها عبير لا يقاوم، وإغراؤها كان شديدا عليه بصورة لم يكن ينتظرها، اقتحمت هدوءه بسرعة فتاكة، لم تمهله لحظة واحدة، انصبت عليه بكل ما تملكه من إغراء، لم تمنحه فرصة التردد، وسدت عليه كل الطرق والمنافذ، حلقت به من جو لآخر، تماسك، حاول بقوة أن يتماسك، ثم انهار دفعة واحدة على مرأى الملاحظين.

وظل يهذي بجنونها، وإقدامها على فعل المستحيل لإرضائه، لم يكن يتوقع إطلاقا أنه سوف يسقط بهذه السهولة، وينهار بمثل هذا التفتت المتنامي، والمتسارع بقوة رهيبة.

– ما هذا يا ترى؟، هل هو الحب؟ أم هو جنون وجداني عارم؟

كان لا يدري، كل ما كان يدريه، أن شعورا فظيعا خلخل كيانه، وهز ثباته الساكن حتى صار يهذي تحت تأثير الإكسير المنبعث من أنفاسها السخنى، وهي لا تسمع، ولا تعي ما يدور حولها، كانت الألفاظ كأعناق الزهر تتمايس بين شفتيه المرتعشتين مبللة بالعطر وندى السمر، وبريق عينيها النجلاوين يستقبله في حالة من التوحد والوجد.

أنا ملتئم يا سيدة الجميلات، قالها، ومضى داسا رأسه في صدرها الناهد، متمتما، ومتنهدا تحت لفحات أنفاسها العبقة :

هاقد جئتني سيدتي
تنشرين ظفائرك على مشارف قلبي وتغطيني
رمميني وضميني
وإن شئت أعصريني
زيديني مسكا وياسمين
آه منك يا سيدة النساء
بالله عليك لا تمهليني
فأنت امرأة من شمع ومن تين
كوني رؤوفة بقلبي، وسليني

وشعي في وجهي يا حلوة بالعطر رشني

آه يا بهية القد، عيونك أهقار تراقب الدنيا ولا تنام.

يا امرأة من عطر التوت، ونكهة الأحراش، كوني مجنونة، أو سافري إذا شئت أواقلعي بمواويلي.

أما تملث من العصر والاعتصار؟

أما نفرت قواك من هذا الطيش والدمار؟

فكوني رؤوفة بقلبي كي لا يخنقني تشابك اللغات المعطلة.

– من أنت؟ ما أسمك؟ من أي المدائن قدمت؟ وما الهوية التي تحملين؟ كانت فارعة الطول ممتلئة، سمراء، تحمل الأسرار في عينيها ولا تبوح، هي صعبة للترويض وجموح، لا تتأخر عن الرقص، ترقص، ترقص بكل قواها ثم تهدأ وتشرع في البكاء والنشيج، فيلفحه البكاء والوجع والأنين.

قالت له وهي تنهار بين ذراعيه : أنا متعبة بالهموم يا سيدي، لا تبخل رجاء لا تنام، فالنوم عندي انكسار، أحلامي كلها كوابيس وأضغاث تعذبني، فرجاء يا سيدي إن كنت حقا تحبني فلا تنام. وكان البركان الذي انصهرت معادنه في داخله كافيا بأن يتحول إلى حمم من الفيض والتجلي في حضرة الحلم والدهشة.

– أين كنا ؟ وأين صرنا ؟كيف للقلب أن ينسى؟
إن العين لتدمع والعقل ليتشظى بالأسى والألم.
أتذكر حين كنا صغارا نرسم بالرمل والطين حدود وطننا، وكان الحب فوق رؤوسنا تاجا للشهداء.
كان الوقت أمانا، والزمان كان زيتونا ونخلا، وجدي يرتل أي القرآن، والسبحة بين أصابعه تهتز جذلى.
كان الحب يفيض علينا فتغمر خيراته الأحداق، وكان الهمس، واللمس، وكل ما يرى، وما لا يرى، يرفل في التيه، والكبرياء.
– فأين شموخك يا وطني، يا أبهى حلة نام فيها جسدي ؟!.
نم يا «شهيد» فقد شفع لك حبك للوطن وتعلقك بتربة بلادك، هو القدر وحده شاء أن تقتل بهذا الأسلوب الجبان، حين استشهد والدك كان عمرك ثلاث سنين لما يئس العساكر من اقتدائه حيا، أبرموا النار في الكوخ الذي اتخذه وثلة من رفاقه ملجأ، يلجؤون إليه لتبادل الرسائل، وحين كبرت، صرت تفخر بأن أباك كان من الصفوة لم يغير، ولم يبدل، ولقي ربه رمادا، رحمة الله عليه وعلى كل الشهداء.

لقد كانت رصاصات الحقد أسرع إلى إطفاء وميض نظراتك الملأى بالإصرار والطموح، لم تداهن، ولم تنافق،

كنت شجاعا، تصدح بالحق، وتكتب ما تراه صوابا، لم تبال بتلك التهديدات التي كانت تصلك عبر الجريدة التي تراسلها أسبوعيا، كنت تقول دائما الموت واحد وإن تعددت الأسباب، إن لم ألق ربي اليوم فغدا، وهاقد لقيت ربك، فنم ياسيد الرجال.

هل تذكر براءتنا وإقبالنا على الحياة في شغف كبير؟ أتذكر وأنت هناك بجوار ربك شقاوتنا وسعينا أيام كنا نتسابق أينا يقرأ أكثر، فأين تلك المحورات الجادة في مساءلة المحنة التي أصابت بلدنا؟

أين أمانينا وأحلامنا في جامعة تحملت كل ما فينا من جمال وطيش؟. ماذا تقول جامعات «عين شمس»، و«اليرموك»، و«منتوري» المتجلية في شموخ؟ أترى ما يزال طلبتك يذكرونك حين تخرجوا وصاروا إلى ما صاروا إليه، كانت رصاصات حقودة صوبتها إلى رأسك الضاج بهم الوطن كافية لإسكات صوتك، فنم إنك من الخالدين.

وأنت يا «جمال»، يا ثمرة تعب أضنى العائلة، أتختفي بهذه السهولة. كم كنت هادئا وقليل الكلام، ترنو إلى الحياة بحذر، آه من تقلب الزمان وفساد خلق الناس، لم نكن مهيئين لذاك الشرخ الناري الذي شق حياتنا على حين

غرة التحقت بواجبك الوطني وكنت فخورا وكنا معك من المتفاخرين، وهاقد خلدت.

حملوك في التابوت الموطن، وكم حملوك، لكنك لم تحمل معك أمانيك، العلم الوطنى وحده كان يسجيك، وينشر على صندوق الخشب ألوان التيه والكبرياء.

حكى لي أبي ذات يوم، أنهم كانوا يصومون، ولا يفطرون إلا على ما تذره الغابات، وتسخو به الشجيرات في وهاد وسفوح الجبال، كان الإيمان بالقضية عظيما، وإيمانهم بالله أعظم، وكان كل شيء يهون بغير شك ولا ظنون.

أنتشلته من غياباته بالغنج والتمسح، وصحا حين صحا على همس رقيق، وشفاف أشاع في كيانه ومضة من الحب أشعلت كل موات فيه.

حتى هو لم يسألها عن هويتها، وما تحمله من أتعاب، ظلت ملتصقة به واجمة لا تتكلم، وحين يصيح في أذنيها : كيفك؟ تجيب وهي ترنو إليه بعينين ذابلتين، وقد ازدادت به التصاقا: - سعيدة بك والله.

- أوضحي.

- أنا حين أكون سعيدة أكف عن الكلام.

نظر إليها وغار بصره في سواد عينيها النجلاوين، وراح يتمتم :

كنت يا حبيبتي منذ زمن إبراهيم الخليل زرعا وزيتونا ووردا.

وكنت حصنا إفريقيا ينهض فوق الصخرة، ومن كل الجهات يقبل الهواء بعيونك وكان الدخول إليك عبر أقواس، وأبواب، ومتاريس أقامتها سواعد رجال أفذاذ وللتاريخ في أسفلك وأعاليك كان لحما ودما ينزف في الشرايين، وفي العروق وأنت هناك حبلى بالأمنيات، تدفعين بأعز الأبناء إلى التحصن ولم الشتات لأجيئك اليوم وقد هجرتني، ومرغت جسدك الغض بين أحضان الغزاة.

فلماذا تنكريني؟، ولماذا تعذبي قلبي بالشجى والأسى والعناد الكبير؟ جئتك أتمسح بقلبي المذبوح بين ثنايا قسماتك الأزلية، فلماذا ترقصين هكذا كامرأة خرافية ولا تعبئين؟

جئتك استحم بلقياك بعيدا عنك يا امرأة من عطر وتين، ويصير طريقي إليك واديا للرمال، وخلودا وعبير.

أتذكرين؟ حين اقتربت منك ارتعشت شفتاك في أول لقيا، وتبسمت يا كاحلة العينين، وحين تبسمت لاح في القلب سحر غامض كوميض البرق أقوى من كل الكائنات، فغطى السمع وغمر الأحداق، قبلتني ساعتها وبذرت كل دفئك

في جسدي، فتبدى للعين سحرك المرمري، وعلى شبابيك عينيك زحف اللولب والياسمين، ومن فرط الدهشة غاب الوعي، وصحا حين صحا الجسم على وشوشات الطير، وهي تهمهم لاهية بمزقات الورد، وحبات القرنفل والزنجبيل.

فماذا أسميك يا فاتنة العمر، سوف أمنحك من الآن ماء الحبر ليسميك، يا أعز من خلق من طين يا «طيناء».

لقد أحببتك يا«طيناء» محبة النبلاء والشرفاء، أحببتك وأنت تعلمين مدى صفاء هذا الحب، أحببتك أكثر مما أحبوك، فماذا تترقبين ممن اغتصبوك. أين «صفاقص»، و«ماسينسا»، و«مسيبسا»، و«يوغرطة» المخدوع؟ وأين أنت يا «جيبا»، ولماذا انتحرت؟، وهل دام الوندال والبيزنطيون؟ وأين أنتم أيها الفاتحون الشامخون؟ ماذا وقع لولاتكم؟ هاهي حبيبتي «طيناء» تترهل في أناقتها الحضارية، وتحن إلى مجدها المفقود، تاريخها الضائع في غمرة الأحداث وتشابك المأساة.

تعاقبتم عليها سراعا، فماذا بقي فيكم من الأنفة والكبرياء؟

وهاهم «الأغالبة»، و«الأدارسة»، و«بنوزيري» إمتدادات تتآكل كشريط متقادم، ولا أثر. فماذا منحتم لحبيبتي

النائمة في عرشها المفقود؟ وماذا بقي فيك أنت يا أعز المدائن، ولماذا تعودين في صورة هذه المرأة؟.

أحببتك على مرأى كل البشر، فكوني جديرة بهذا الحب، أرقصي ما شئت مع الراقصين، كوني بلهاء، أوخرساء، أوذكية، أوسخية، كوني كما ترغبين، فحبي لك يا «طيناء» مكتوب على الجبين، وسافري مع أحلامك وخلانك، فسوف تعودين، إرحلي هكذا بغير وجهة ولا مصير، فعندما تعودين تلفين حتما قلبا يحبك ويرعاك، وينام مغرما على مشارف تاريخك الحزين.

أحببتك باسم النبلاء الذين أحبوك ورعوك في صمت، فلن تختفي، ولن تتبخري من واحة حبي والغدير، أيا صفصافة عبرتها المحطات المقرفة، كوني عذراء في شموخك وكبرياء طلعتك، فالذين مددت إليهم يديك ما أحبوك.

فقد نزلت يا «طيناء» من شموخك واختزلت وجودك الأزلي الحافل بالقيم والأمجاد في الرذيلة والفجور، إنهم ما أحبوك، لكنهم ظلموك.

لقد هجرت العطر الذي سكبته على شفتيك، وسافرت كأفراخ الصيف إلى لا مكان لكنك سوف تعودين، لا شك، وحتما، ستعودين.

أما أنا فغدا أرحل، وفي قلبي يتربع عرشك بالجراح والأفراح والأتراح وأهتف للقادمين، والعائدين والتائبين أن يحبوك كما أحببتك يا امرأة من طين.

فأنت اليوم قبلة، وربيع ووئام، وأنت اليوم واحة للعابرين وقلعةوبلدة للنازحين، فسوف أرحل إلى حين، وأدعو القادمين العائدين أن يحبوك كما أحببتك يا امرأة من طين.

وأبشرك إنني سوف أقلع عن التدخين، وأتهيأ لاستقبال ذكراك بالورق، والحب، والحبر، والياسمين. فإلى اللقاء يا زاهية يا عذراء.

طيناء

الصرخة

المدينة جاثية على عرشها الخرافي في سكون مهيب، تؤنسها ملائكة الصمت، وتوشح أخاديد جسدها المعبق بالورد والياسمين أنوار تألقت في رؤوس الأعمدة كعناقيد الألماس.. نظيفة هذه الشوارع تطفح بالأحلام، وسحر الموسيقى الهادئة، شرفاتها هائلة، تتقاطع، مكللة بتيجان الخضرة، المنسدلة، والمرتقية.

جميلة هذه الواجهات، الأضواء تتراقص، أمواج حمر، خضر، صفر، تتعاكس، تنسكب على صفحات الظلام المبدد، معالم الأشياء تبرز لامعة..ما هذا السحر؟.

أية أنوار؟ وأية مدينة هذه؟ كل ما فيها يشجع على الوقوف والتأمل في حضرة الهندسة، واللون، وأشياء أخرى تباعدت متنافرة.

حقول النارنج والورد التى كانت تزين المدينة على الضفاف قد تبددت تحت أطنان الإسمنت، عن ضواحيها تتناطح

البنا ءات غير بعيد عن هذا الحي الأنيق، وفي قلب المدينة النابض بحركات التاريخ والنكهة في غير تناسق.

القادمة من تلك العصور الزاهية الخالية، تشابكت البيوت القديمة المتهرئة في ود بائس، لم يمنع الخطر الذي يهدد الأسرة القاطنة بها منذ فجر الاستقلال من مغادرتها الأخشاب الهشة تزداد تآكلا.

خلت الأزقة من الحركة، خلا ثلة من الشباب المراهق تحلقوا حول نار أوقدوها للتدفؤ، والتسلية في غياب الإنارة الباهتة التي كانت بالكاد تكشف جوانب الحارة الضيقة.

كانوا كالأشباح يحاولون مغالبة مشاكلهم اليومية، من حين إلى حين تقطع مرحهم المشنج ندا ءات قادمة من فوهات الحيطان المتآكلة..الأمهات تفرجن فوهات بيوتهن ثم تعدن متأففات، وقد أعيتهن الندا ءات المتكررة.

أوصدت الأبواب، وأطفأت المصابيح الشاحبة تاركة ورا ءها وحشة أزلية.. رياح الشتا ء تعبث بالقمامة..قطط متلصصة تترافس على رؤوس سمك ملفوف في كيس ممزق..رجال القمامة يدفعون بأحمرتهم نحو أعماق الزقاق، يسلمون على الصبيان، ويمضون في شغلهم غير مبالين بالوحشة والبرد.

خرق الهدوء وقع أقدام مطرقية، كان كهلا جاوز الخمسين بقليل، عاري الرأس، يتلفع عباءة ضاقت ببدنه المكور، خطاه الواسعة تلتهم مسار الزقاق الضيق، كأن وراءه أمر خطير..تتوقف طرقات أقدامه عند باب خشبي عتيق شوهت نقوشه الكالحة بفعل القدم، بعض الصفائح الغليظة من اللوح الرخيص، دفع الباب بقوة، وارتمى عملاقا إلى داخل البيت... ناوله الفتى مقعدا قديما كان بجواره وهو يبادره بالتحية مرحبا..

حدجه في نفور غريب، فيما كان المقعد يرتطم بزجاج الدولاب، محدثا صوتا مروعا.

ذهل الفتى، وحاول أن يهدئ من سخطه، ماذا دهاك ياعمي؟

- يعميك العمى ويطمس بصرك إلى الأبد، تلفظها بلسانك السام ولا تستحي.

طأطأ الفتى محاولة تخفيف الغضب الذي ملأ صدر صهره، تنفس نفسا طويلا، ثم أردف قائلا :

- هل حدث شئ، ما الأمر يا حاج؟

- الذي حدث أنت صانعه يابن اللقيطة، يابن.. هل كبرت حتى صرت تغضب ابنتي، منذ متى صار لك القرار في هذا البيت؟

– أنا لم أفعل شيئا، هي التي غادرت البيت بمحض إرادتها، لقد هجرتني منذ أربعة أشهر، وأنت تعلم هذا، إنها لاتريد مقاسمتي هذا البيت، فمن أين آتيها بشقة كما تطلب، ماذا عساي فعله، ألم أغادر أهلي نزولا عند رغبتكم؟

– إخرص يا ملعون، لو كنت رجلا مثل الرجال، لوفرت ما يليق بابنتي.

– لقد أعياني البحث ياعمي ..

– لاترددهاعلى لسانك..أخرج من ملكي، لاتريني وجهك البائس أيها الشقي.

– ألعن الشيطان ياحاج، الناس نيام.

– قلت لك عجل ..

انحنى الفتى يجمع بعض حاجاته المتناثرة كيفما اتفق في أرجاء الغرفة، لكن الحاج لم يمهله.

– ماذا تفعل يابن...لاتملك شيئا في هذا البيت، هيا أغرب عن وجهي، فكل ما بيتي هو ملكي، ليس لك شيء هنا، هيا أخرج، ودفعه بقوة مصفقا الباب خلفه بعنف.

أحس الفتى بألم يخرق صلبه، ارتمى من شدة الألم في عرض الزقاق، التحم الصبيان الذين كانوا يتدفؤون بالنار

بجسده العائم في بركة من الدم، حاولوا إسعافه، فيما دخل في غيبوبة عميقة.

ضجت الحارة بالجيران وكثرت الأسئلة والتعليقات ...

تردد في أرجاء الحارة الضيقة المتسخة ما مفاده أن الحاج عمر طعن صهره.

أحس أنملة رقيقة الملمس تداعب جبينه، فإذا بوجه أمه الباسم، يستقبل صباحه، ويدعوه صوتها الحنون إلى النهوض لتناول الإفطار.

عقارب الساعة تشير إلى السابعة، تنفس الصعداء، وراح يزيح الغطاء، فرك عينيه المثقلتين بالنعاس، وردد في صمته، مجرد التفكير في الزواج كلفني كابوسا قاسيا، ترى كيف يكون الحال حين أضع حدا نهائيا لهذه العزوبية؟.

عودة الدرويش

يا أهل المدينة، ياسكان الحي العتيق، قوموا الليلة، طالعة الجنية من ثقوب الحيطان، رد بالك يا ساهر تأتيك البلية هذه الليلة.

كان الصوت الصادر من حنجرة الدرويش يتكاثف في ثنايا الحى، ثم يتناثر في تواتر عبر الدروب الحجرية، تبدده الظلمة العميقة .. صوت رخيم وشجي، في امتداداته المتموجة خلل الإلتواءات التي تشكلها تضاريس الحي، يختزل الحلم ممزوجا بالألم والانكسار.

لم يكن الصوت مألوفا لدى السكان الجدد ، الذين دفعتهم ظروفهم القاسية إلى الاحتماء بهذه المدينة، مدينة عريقة في صمودها وشموخها عبر آلاف السنين، مسكن النسر، وحصن المتحصنين، لاذ بها هؤلاء، هروبا من آلة البطش والإرهاب، قدموا بجلدتهم من القرى المجاورة، والأرياف التى صارت مناطق محرمة، من يدخلها لا يخرج سالما، ومن يقيم بها

يدفع الجزية كرها ومرغما تحت التهديد، ومن يخالف أوامر المقنعين الزائرين ليلا في كتائب وسرايا، إما يبعد، وإما يقتل، قانون سنوه، شرعوه بأمزجتهم، ويتظاهرون أنهم أصحاب حق وقضية.

استيقظ النائمون على صيحات الدرويش المنبهة خائفين، ملتاعين، فازدادوا تحصنا بحيطانهم المتفسخة، والموشكة على الانهيار.

ما الذي عاد به في مثل هذا الليل الشتوي، تساءل الشيخ «مسعود» وعيناه المتعبتان تغالبان النعاس، لقد سمع عن الدرويش، قيل أن سحنته الصافية تلمع تحت ضوء النجوم، وقامته مديدة فارعة تتوارى خلف جبة فضفاضة، نظيفة، وطاهرة، لم يمسس جسده الماء والصابون منذ خلق، أو هكذا قيل عنه، ورغم ذلك، فهو نظيف، وطيب الرائحة، من ثناياه ينبعث المسك، قيل أن المسك ينفث من جسده القوي بشكل لا يقاوم، وهروبا من النساء والعجائز اللاتي يطاردنه تبركا، وتيمنا صار لا يختلف إلى الحي العتيق إلا ليلا، والواقع أن لاأحد رآه مرأى الحقيقة، والبصر.

بعد أن استمتع عمي مسعود بهتافه الشجي، اجتاحته سعادة غامرة، ثم عاد إلى فراشه بعد أن سوى بطانيته

المتهرئة، التي يتقاسمها مع العجوز «علجية»، وأبناء ولده الأوسط.

ولده الأوسط نجا بأعجوبة نادرة من موت محقق، كان رفقة صديقه الحميم «سليم» في محطة الحافلات يستعدان للركوب عائدين إلى أولادهم، لكنه تفطن في آخر لحظة قبل أن تقلع الحافلة، أنه نسي السروال الذي اشتراه لابنه في فسحة الظهر بالمكتب، فاعتذر لصاحبه، وغادر الحافلة، لما أدرك باب المكتب، بادره الحارس الليلي أن قنبلة انفجرت في حافلة للركاب قبل إقلاعها من المحطة.

ظل أسبوعا كاملا فاقد النطق، لا يكلم أحدا، اجتاحته رعشة غريبة، وسكت عن الكلام، بصره وحده كان ينطق بما تكتم به لسانه، عندما سمع الخبر هرع كغيره من الناس إلى مشفى المدينة، لقد كان في نيته التبرع بشيء من دمه، وفيما هو يقطع الردهة التي امتلأت بالأطباء والمسعفين، رأى مالم يكن يتوقعه، رأى صديقه وجاره «سليم» ممزق الأطراف، ذاهب الملامح، عرفه بالساعة التي أهداه إياها قبل أسبوع، انحنى على الجسد المشوه، وراح يجهش بالبكاء، تراءت له أيام الطفولة، ومقاعد الدراسة، تراءت له شقاوة الصبيان، وحب المغامرة، تراءت له الفرحة العظمى إثر نجاحهما في شهادة البكالوريا.

«سليم» صديقه الأوفى، وزميله في المكتب، مر كل ذلك دفعة واحدة في صورة شريط متسارع، عندما أستعاد وعيه ألفى نفسه غير قادر على النطق، ولا على السمع، ومنذها وهو قعيد الغرفة لا يغادرها.

غرفة ومطبخ ولاشيء ياعمي «مسعود»، نم، نم، ولاتحزن فالدرويش لايملك دارا ولاقرارا، يقيه شر هذا البرد الناهش، أصخى الشيخ «مسعود» إلى ذاك الهتاف الذى ملأ جوارحه، ثم استكان إلى فراشه، وفي قلبه حسرة حينها أصدر حفيده المنكمش في زاوية من زوايا الغرفة أنينا كالبكاء.

رياح ديسمبر تعوي كذئاب جائعة، وصفائح الزنك تهتز فوق رأسه، والقطع الواقية لفوهات الحيطان المنخورة تصدر زعيقا قاسيا، وحادا كالمنشار، حاول عمي «مسعود» النوم فلم يستطع، بسمل، حوقل، ثم راح يلف اللحاف على رأسه.

الوافدون الجدد على الحي لا يعرفون الدرويش، يشعرون بغريزة الفضول تأكل جوارحهم، لكنهم لا يقدمون على تخطى الباب الخارجي للبيت، بيت قديم مشكل من عدة طوابق تفضي كل أبواب غرفها الصغيرة إلى الداخل، تتجاور الغرف، في إئتلاف، الجيران السبع الذين تحتويهم

الدار كأنهم أسرة واحدة، حب الاستطلاع مات في نفوسهم ود بعضهم تجاوز خوفه، لكنهم تراجعوا، عادوا إلى مراقدهم بعد أن أوقدوا الأسرجة، لقد أوشكوا نسيان نور الكهرباء، كان يتلف التيار كل ليلة، ولما نسفت محطة التوليد التي تغذي الحي بالإنارة، اقتنعوا بضرورة التزود بالأسرجة التي تضيء بزيت البترول.

الأزقة خالية، الريح تصفر، والكلاب الشاردة وحدها تتعارك على أكياس القمامة، وصوت الدرويش لا ينقطع، يأتي كل ليلة في أوقات متباعدة، ثم يتبدد بسرعة مذهلة.

كبر أحفاد الشيخ «مسعود»، اختلف بعضهم إلى المدارس، وأكبرهم التحق بالثانوية التي صارت تحمل اسم عمه شهيد الواجب ، لقد نال الشهادة وهو يؤدي واجبه الوطني.

عاد الوافدون الذين هجروا من مساكنهم قبل عشر سنوات إلى قراهم ومداشرهم، صاروا ينعمون بالإنارة والدفء، الطرق الترابية هيئت، ونشطت الزراعة وتربية الماشية، سعدوا بحياتهم الجديدة، الهيآت العليا في البلد وفرت لهم ما كانوا يفتقدونه قبل أن يفروا من الموت، والداخلية أبعدت عنهم الخوف الذي كان يسكن مفاصلهم، عادت الحياة إلى المزارع والحقول، ودب نشاط كبير في أوساط الشباب.

غادر عمي مسعود وعائلته الحي العتيق، إلى مسكن مريح وكريم، لايبعد كثيرا عن الحي العتيق، من حين إلى حين كان يتفقده.. آخر مرة زار فيها مسكنه القديم، وجده والمساكن الأخرى التي يشملها الحي قد حولت إلى محلات جميلة للصناعات التقليدية، لقد صارت جميلة وأنيقة، ينشط فيها شباب من مختلف الأعمار، يتلقون المهارات اليدوية من صناع مهرة، يعرف بعضهم الشيخ مسعود، رحبوا به في آخر زيارته ، وأقسم صديقه الحاج «محمد» أن لا يسمح له بالخروج حتى يتناول بصحبته فنجان بن، أعده بطريقة تقليدية جعلت الشيخ «مسعود» يتنهد منتشيا بنكهة البن، وهو يردد على رأس لسانه : بن وعليه الكلام يا حاجي، فيرد الحاج «محمد» وابتسامة عريضة تملأ وجهه بصحتك يا شيخ «مسعود».

كانت تلك الزيارة، آخر زيارة زار فيها الشيخ «مسعود» الحي العتيق، عند عودته إلى مسكنه الجديد كان راضيا وممتلئا بالغبطة والحبور، بعد أسبوع لزم الفراش وصار لا يرى في منامه غير مشهد واحد، تكرر عدة مرات، كان ذلك المشهد مبعث الانبساط في نفسه، وحين يسأل من قبل أحفاده عن سر الفرحة التي تغمره كل ليلة، كان لا يجيب، ويكتفي بالقول أن الحياة أمامكم زاهرة، ووطنكم

كريم، فلا تفرطوا فيه وقت الحاجة، إنه السند الوحيد الذي تسندون إليه رؤوسكم، فكونوا كما أراد لكم هذا الوطن، إنه يجمع ولا يفرق، فكونوا كذلك.

حاولوا أن يجدوا تفسيرا لسر هذه الابتسامة التي تملأ وجهه، وهذا الكلام الذي يهذي به، لكنهم لم يفلحوا في معرفة سر ذلك.

لما اشتدت عليه وطأة الوهن، صار لا يكلم أحدا، فقط الابتسامة وحدها كانت توشح سحنته الضاربة في الشحوب، لكنها منطلقة، ومستبشرة، كان غائبا، فاقد الوعي، بارد الإحساس بمن حواليه، رأى طيف الدرويش يحوم على جنبات الصالة التي يتمدد فيها، وأحفاده من حوله يتمتمون بآي من الذكر الحكيم، والعجوز «علجية» تضع يدها المعروقة على جبينه، وتدعو ربها في سرها أن يقويه لتجاوز هذا الوهن، والشيخ «مسعود» يزيغ ببصره في جنبات الصالة، لم يعد الدرويش يصدر ذلك الصوت الشجي، صار صوته مليئا بالدفء، الشيخ مسعود وحده كان يلتقط ذلك الصوت ويرى وحده طيف الدرويش وهو يحوم بجنبات الصالة، «يا أهل البيوت يا ساكنين الشقق، يا سعدكم، يا مسعود، انعموا بالنوم الهادئ، لا تخافوا الجنية، الجنية قتلها الصالح...

جحظت عيون الأحفاد ، وازدادوا التصاقا بجسد جدهم، كان البرد يسري في عروقه ومفاصله، وجبينه يفقد لون الحياة شيئا فشيئا ، كل شبر ، كل قطعة، كل جزء من جسد الشيخ «مسعود » يغادر لونه المعتاد ، إلا شيئا واحدا أبى أن يزول، ذاك الشيء كان ابتسامة عريضة تملأ وجه الشيخ «مسعود » إلى أن فارقته الحياة.

الأرق

كالطود جبارا يجثم على صدره مفرغا ترسبات السنين، يلوك أنفاسه، يعصر دمه، يمتص رحيق المتعة والشباب الراحلة في حياته...أشياء فوضوية لا معنى لها تراقص تهيؤاته في خمول فاتر.. ترتسم حوله علامات الاستفهام، تأخذ أحجام الملل والكآبة التي تغلف وجوده، لم يعد لهذه الحياة معنى في ناظره.

حاول، كم حاول تفسير سر هذا التبلد الذي شل أعصابه، ألفى ذهنه معطلا، مازال الأرق يطارده، ويلاحق لياليه البيضاء بتعنت شديد، تائه هو في غبار الزمن، تأكله الوحشة، ويزدريه النفور، كل ما يحويه يثير في كيانه القرف، رغبة جامحة تدفعه إلى الانسلاخ، تقابله وسادته الخالية، يهرع إليها، تتيقظ إنسانيته، وتعود من جديد كما بدأت، تركن إليه رغم أنفه لائذا بالصمت، ساكنا لا تبرحه الحالة الهستيرية التي لبسته منذ أقدم على ضرورة

الأخذ بزمام أمور البيت، أينما يولي وجهه تصفعه رائحة الأشياء الداكنة، وخرائط جدران بيته العاري.

ماذا حدث؟ لاشك أن شيئا ما فقد اتزانه، العتمة ترى، وعتمته لاترى، كامنة في ذاته تنام نوم الأطفال .. تتثاءب متى تقدم الليل، وتسرح يديها إذا ما ضرب أطنابه في الأمصار.. زار كل الأطباء ومداوي الأعشاب، لف المدينة من أقصاها إلى أدناها باحثا عن ما يمكن أن يحدث في حياته المعجزة ، ويخرجه من هذا التبلد الغريب.. حاول، كم حاول، لكن دون جدوى .. هاهو يرى العالم منقلبا ومعكوسا ، البشر يتخطون الشوارع والأزقة الضيقة، وأرجلهم معلقة في الفضاء، يصيبه دوار ثقيل من وطأة المشهد.

حاول التخلص مما هو فيه، كم حاول، لكن أعيته المحاولات المتكررة، ثم أذعن لحالته مستسلما ليأسه في عمق الدجى.

أطفأ مصابيح الإنارة، وراح يخاطب كابوسه في حوار داخلي مدم وجارح...آه لوكنت إنسانا أوحتى وحشا كاسرا، لجازفت، وصارعتك، إما أنا، وإما أنت، حياة مريحة وهادئة، أو موت، لكنك لست كذلك، فما عساني فعله، إنك هنا في فضاء غرفتي، بجانبي لاتبرح عقلي، تراقبني، وتجتاح أعصابي بغير احتشام، تزحف كالخرافة

في البيوت والشقق، تتفقد العزاب، والعوانس، ومع أنهم يشبهونني في غربة الفراش والمضجع، يبقى حظهم أوفر دائما من حظي.

لم هذه المطاردة؟ ألم يكفك جسدي النحيل، وخيوط الوهن التي كبلتني وجعلتني غير قادر على التجاوب مع الحياة؟ أهجرني، خلصني، دعني، فقد مللت الترقب والانتظار.

لا أذكر بالضبط كيف تعارفنا، وكيف تجرأت على اقتحام نظامي، كل ما أذكره، هو ذلك المرض المفاجئ الذي داهمني على حين غرة، أقراص في يميني، وعلب سجائر محلية في شمالي.. وبعض الصحف والمجلات، لقد هتفت باسمي، ولما التفت، ألفيت رأسي يدور كالحلزون، ثم يهوي على صدري ثقيلا مخدرا، حاولت التماسك، حاولت طرد الهواجس التي صارت تطارد يقظتي، ولا تدعني أخلد إلى غفوة، لكنني فشلت، وقدمت أنت حينها ترفل في برنوس شاحب اللون، يميل إلى الأصفر، حييتني واقتحمت حياتي، أرغمتني على الحديث الممل والتهيؤات البعيدة عن عالم الحقيقة، بإكسيرك ومفعوله القوي جعلتني أسير الخواطر والأحلام التي يصعب تحقيقها.

هاهي كل شبابيك الجيران موصدة إلا شباكي أنا، ولو أن انفراج شباك نافذتي خير لحالتي وأنفع، إذ لولاه لابتلعتني

غمامات التبغ، وعفونة النيكوتين، وبقايا من رسيب القهوين المركز، بالأمس فقط، التهمت أخاديد المدينة حيث الدكاكين الصغيرة التي تبتاع الأشياء المهربة والمفقودة، وبالكاد عثرت على علبة من الطراز الذي أعشقه، كان سعرها أغلى لكنني اقتنيتها وأنا راض ومبسوط ... وهاأنذا الآن بين فناجين القهوة وأعقاب السجايرأنتفس الحبر والدخان، ومن حولي الأصفر يرمي بظلاله على وجودي، أضحى طلاء الغرفة أصفر، غلاف الكتاب الذي بين يدي أصفر، آمالي الباهتة صفراء، ..أتنفس الأصفر، وأبتلع ريقا أصفر.

آه لوأستطيع، لو وضعت حدا لتطاولك، وأغلقت في وجهك كل المنافذ، فالتي وهبتها أغلى مايوهب وهبتها حبي ووفائي، كانت من صنعك، لقد غار فيها كل شيء يبعث على الانشراح وانفتاح النفس، تبدد ماء وجهها وغزته الأصباغ، صوتها صار أجش، لا رنين له، صوت بارد، جامد، لايحرك النفس، صوت كئيب، وبائس، ...هاهي الأصوات قد اختلطت على مسمعي بلطانتها، هاهي الصورة نفسها تتكرر كل ليلة، ..المجازر هي، هي، في كل أنحاء الدنيا، اليوم هنا، غدا هناك، أنين المعذبين، صراخ الثكالى، الخلق يجوعون، لا يجدون ما يقتاتونه، الدنيا ليست بخير، وهي لاتبالي.

بين شمس متسلقة البحر، وغروب وشح حياتي بسقت كشجرة صفصاف، إلى أن استوت على جذعها تعانق عنان السماء، ولت تنثر ورقا أصفر، سبحان الله كيف صار ورق الصفصاف أصفر، تنثر أوراقها، ورقة، ورقة، في كل ورقة معاهدة وتوقيع، .. فكان فراشي، ودثاري من أوراقها، من صلبها، من أمشاجها، ولحظة، أقفلت عنى، غادرتني فى أحلك أيام حياتي.

لم الخديعة، أنا لم أفهم أي امرأة كنت، ولن أرهق أعصابي في البحث عنك، زواجنا كان عرفيا وبشهود متأففين، وكسالى... مرت أعوام ولم تعودي، عهدتك وفية، حين تلم بي المحن تعودين، لكنك لم تعودي هذه المرة، سأحتفظ بذكراك، واتخذ من أيامنا البائدة الجميلة ذكرى جميلة تنسيني فيك..أنت تعلمين أن سبع سنين وما أطولها، لم تكن كافية لأن توحد أمانينا، وتذيب همومنا في الحب والائتلاف.. سبع سنين لم تثمر علاقتنا بثمرة ذاك الحب الجميل، لقد خلق ميتا ومشوها، دفناه بغير صلاة ولا طقوس، دفناه بخشوع ورهبة، وعدنا نمزق بعضنا، ..لو صبرت لرزقنا بأخيه وأخته، .. حبك للأقراص كان أعمى، وأعنف، ..فأي أم كنت يا...؟ وأي قلب ملكت، وهل فعلا كان لك قلب؟

افترقنا وكأننا لم نلتق..ليتنا ما تعارفنا، ليتني بصراحة ما عرفت هذا الصنف من النساء، الأرق وحده صديقي وملاذي، فهنيئا لي بصحبتك أيها الصديق.

رحيل نوفمبر

تساءل بعض الذين صادقوه بالأمس، ممن لم يغير، ولم يبدل، ترى لما شاخ نوفمبر هذا المساء؟

قال أحدهم، أنه حين غبشت الرؤية في ناظريه ترك إرثا ثقيلا خلفه، وشد الرحال إلى القمم.

وقال آخر : انتقى قمة في أعلى الصخرة، كي يبقى حيا، تردد تسابيحه تراتيل أطراف النهار، انتقى وحده دون شريك فسحة في البهاء، تعانق أنفاسه نسمات الشتاء، حتى الشتاء صار لطيفا مع طلعته هذا المساء.

كان نوفمبر يسرق من بيوت المتخمين نفحات من العطر والياسمين، ويجمع بأحبائه البركات من شظايا الألم، كي يرمم حصون الجائعين في صبرهم، حين استبد به اليأس من تجهم وجهاء المدينة الخالدين في عزهم، والمترفين شدّ الرحال إلى القمة الشماء كي يخلد في الذاكرة عراجين تيه وكبرياء.

لعله تذمر من تكاثر الثكالى، وشكاوي اليتامى، ربما فشل في محاولاته المتكررة لإعادة الأمل للنشء القادم، واسترداد البسمة الضائعة التي كانت تكلل وجوه الأطفال أيام عزه والكبرياء.

قد يكون ذا الزعم صحيحا، وقد لا يكون، لكن الشيء المؤكد أن نوفمبر رحل هذا العام في صمت، ولم تعد تغريه احتفالات الذكرى.

ولربما مل تلك المراسيم، وآليات توشيح الموشحين بالأوسمة، أوسمة تبخر شذاها، وغدت بلا نكهة ولا عبير.

قيل، أنه قبل أن يشد الرحيل تأمل مليا تلك الأوسمة والنياشين، وغمر ربوع المدينة الزاحفة بالأوحال، وما تبقى من آثار الطبيعة الغاضبة نحو المنحدر بنظرات زائغة، ثم اختفى.

الصدمة كانت عنيفة، قاسية على أعصاب دماغه المرتج، واليأس وحده عمل على ما عجزت عنه خمسة عقود من البطولة، والفحولة، والمجد العتيد.

في لحظة محدودة التمدد، خرافية التشكل، والتصدع، انهارت قوى مداركه على وقع الصدمة فغاب عن الوعي، وطالت نوبات الغياب..

كانت الحدود الشرقية للوطن المغتصب تشتعل، وكان

على رفقائه اجتياز الحقل المكهرب، والمسيج بالموت، حين داهمتهم الآلية المدرعة لم يكن أمامهم خيار غير خيار المواجهة، صوب بندقيته نصف الآلية نحو حزمة الضوء الكاشف، وراح يدوي بأعلى صوته تحيا الجزائر..الله أكبر.. وتبعه الرفاق.

كان الليل شديد الظلام، والسماء من فوقهم تلمع، تنير دربهم في الشعاب والمسالك، وبقية باقية من الصبر والإيمان تدفع بخطاهم نحو مشارف النجاة..قبل أن يتفطن «الخاوة» إلى بعض أمعائه المتدلية من بين أصابع يده اليسرى المتلفعة بالشاش، غط في غيبوبة عميقة، ونتانة اللحم الآدمي تخرق منخريه متدفقة إلى الأعصاب، لكنه لم يفلح في أن يزحزح رأسه المثقل عن بقايا الجثة المتقدمة في العفونة، جرفتها السيول، .تجلد دماغه بين الحياة والموت، وبقية من النفس الوهن تسلي مخياله السحيق بأطياف الوطن، وقد لاحت الراية خفاقة فوق ربوعه، وأطفال في عمر الزهور يكركرون تحت سحر هدهدات نشيد قسما... من جبالنا..صوت الأحرار.

حين لاحت تباشير الفجر الندي، تفطن الرفقاء إلى بطنه، فحملوه جثة مسجاة على اوتاد، وفروع الجر المورقة، إلى الضفة الأخرى من الوادي، ... وكتبت له الحياة.

لكن هذه المرة لم ينج منها، النهر الذي حكى لنا عنه على الرغم من فيضانه، وشراسة تدفقه على الضفتين كان رحيما، تذرعوا، تشابكت أيديهم، قاوموا التيار، وحملوه باستماتة إلى الضفة الأخرى وكتب له البقاء، فعاد مع النبلاء ممن كتبت لهم الحياة إلى ربوع الوطن.

كانت تلك الليلة التي عاد فيها عرسا بحق، وكان العريس الذي رآني لأول مرة أدرج على قدميا، بعد أن غادر دشرتنا، وأنا في المهد صبيا، كان ينعم وقد حلق حوله الزوار بمداعبتي، متأملا بدلتي العسكرية، التي حرص أن تخاط على قدي الضئيل، كما حرص على أن استسلم لثقل مسدس علق بيمين حزامي، وخنجر عملاق شد بيساره، ولأنني لم أكن أقوى على الوقوف، أقعدني على ركبتيه في شيء من التباهي العظيم.

مضى العرس، وكبرت مع تجدد الأعراس، وعلى محور الزمن تغير كل شيء، فلم يعد الناس يحفلون بأمثاله من رفقاء الجيل الأول، ومضى في زحمة الأيام يؤدي دوره على أكمل صورة، كما كان، ويحلم بالأفضل، يعيش كبقية الخلق حياة عادية وبسيطة، فيها الشيء الكثير من رحيق الماضي الممتع، الجميل، غير أن ثم شيئا واحدا ظل يؤرق مضجعه، ويشحن دماغه بالتوتر، والضغط، ويوشك أن يبوح به كلما

قدم نوفمبر، لكن لم يتعد السر مساحة ما بعد شفتيه، ظل كتوما لا يفشي شيئا إلى أن قدم هذا الشهر، ووقعت الواقعة، ولأنه فقد جزءا من أعضائه بسبب الشلل الجزئي، فقد قبع في بيته يتابع الأخبار، ويترقب الصور.

لم يحتمل.. كانت الصدمة قوية على أعصابه، وفتاكة، إذ بالكاد كان يميز الأشياء، في البدء شكا للحاضرين صداعا عنيفا، وزيغانا في البصر، وعدم المقدرة على النهوض، ثم فجأة تسمرت عيناه في مركز الصورة ...

عاد النهر في تحرر فظيع، وتداخلت مشاهد الروعة عبر دهاليز التذكر، ورأى وحده في خشوع صامت مسلسل الأحداث بأدق التفاصيل، وقوة الدمار الكاسحة لكل شيء ثابت، أو متحرك، ..اهتز من فرط الصدمة هزة عنيفة، انتفضت لها جل أعضائه، وسكت دفعة واحدة عن الكلام.

أرخى رأسه إلى الأريكة، لم تكن هذه المرة قطعة من أشلاء جثة متقدمة في التفسخ، ومع ذلك لم تكن مريحة، ولامهدئة للشريان الغاضب في دماغه، تهور دفعة واحدة، تكلس الدم فيه، ثم ثار وتفجر، ومع تدفق الدم من مخارج الهواء، طلعت روحه البريئة، ورحل في صمت إلى قمته الشماء.

الوجه الآخر

تندهش في البدء، بخفة تيار عجيب تسري الدهشة في أوصالك، تتناثر أمام ناظريك أسرابا من الجزيئات الدقيقة، تتطاير تباعا حواليك مغلفة بالحيرة والاستغراب، مشحونة بالأسئلة المعلقة.

لقد تكاثفت هذه الأسئلة كيلا تدع الدهشة تأكل جوارحك، لعل كلها أو بعضها يجد صياغة لمحتواك بين تفاهة الأشياء، وما يلفك من ضياع، تتسع دارة غربتك باتساع الكون، وتلفي ذاتك فجأة في الوجود نقطة بلا معنى، بلا جدوى، مشلول بلحظات الترقب، وانتظار كلمة وديعة تنزلق من بين شاربه الأمرد، وشعيرات لحيته المتراخية في استهتار، قد ترحل التهنئة إليك مجنحة بالحب كما توقعت، وقد لا تغادر صمته، هيأ لك أنك تنتظر المستحيل، تحية عادية تفادتك للزملاء، توهمتها من فرط الصدمة والانكسار، أنها قد بلغتهم جميعا إلا أنت.

لم تكن تترقب منه هذا التغاضي، خصوصا في مثل هذا الظرف، فكل من يكن لك الود، والذي لا يكن لك نقل إليك البشرى، بشرى الحدث الذي أدخل أم ابنائك في دوامة من السعادة والحبور، وزرعت بذور الفرحة على شفاه أبنائك.

حاولت أن تلغي رقعة التعجب المتداعية في قرار خاطرك، وكعادتك فسحت لبريق عينيك يخبو برفق حتى تبدو طبيعيا، تماما، كأيام الطفولة الأولى، كنت تصوب نظراتك نحوه، وكأنك بذلك تريد أن تقول له :

– أنا موجود، إني هنا، ألم تراني؟

لكن، لم يتحقق شيء من تلك الرغبة الخفية في أعماقك.

تراه كئيبا، مطرقا، قد اعتد صدغه بساعده الأيسر، موار وجهه بين شحمة راحته، وأصابعه، كيلا تلتقي نظراته بنظراتك، فهو يعي مدى تأثير تلك الوداعة المنسابة من مآقيك في لحظات المسرة، وحتى يتسنى لحدسك التقاط ما يجول بخلده، عمد إلى إخفاء شعوره المخبوء بين عوالم سريرته بطريقته الخاصة.

تحس برغبة ملحة لمفاتحته، ومعرفة سر اختفاء المرح الذي كان يغمر محياه، لكن شعورك بالكبرياء وعزة

النفس يعزفانك عن الإقدام على ما خطر ببالك، خوفا من الإصطدام بالبرودة، وعدم الاكتراث ...

يخيل إليك بعد وقت قصير أنه تحول إلى قطعة من قطع الأثاث التي كانت تشغل حيز القاعة، فلم تعد تنظر إليه، أهملته نهائيا، كأنه لم يكن البتة موجودا في القاعة، حين اقتنعت بهذا الشعور الذي غمرك فجأة، بعد كثير من التردد انشغلت بأوراقك التي كانت أمامك لتكملة ما ينتظرك من عمل.

يوم كنت تلميذا في مرحلة الثانوي، وكان أبوك عاطلا عن العمل، كنت تتعب رأسك الصغير فى المفاضلة بين أناقة زملائك في الصف، وردا ءة ماكنت ترتديه، لقد كنت تشعر أن ملابسك الرخيصة تقلل من احترام زملاء الصف إليك، ومع ذلك كنت تغالب ذلك الشعور بالتفوق في الدراسة، وكلما نزعت اعجابهم بمثابرتك ازدادت ثقتك بذاتك.

لقد ولد فيك ذاك الشعور ازدراء لأبناء الأغنياء المترفين، فتتصور المجتمع هرما طبقيا، وأنت وأسرتك تنتمون إلى الطبقة الدنيا، وهاهي العبارة الخالدة التي أفضتها إليك أمك قبل أن تفارق الحياة مازالت حروفها تضج في مسمعك، وتجيب الإجابة الشافية عن كل التساؤلات العالقة آنذاك

«الأرزاق بيد الله يا ولدي، إياك والحسد، عاند لاتحسد»، حينها اكتشفت سبب انطوائك ونفورك من الأتراب.

اجتهدت في السعي عن مصدر رزق يصون ماء وجهك، ويضمن البقاء لأخوتك القصر، أطرى سنوات عمرك حرقتها بين شقاء العمل اليدوي، وطلب العلم في أنفاق الجامعة، وزوايا المقاهي الشعبية المعتمة، كان يحز في نفسك كثيرا رؤية أقرانك، وهم يستغلون حيوية شبابهم الغض بالاستمتاع بمعاكسة الصبايا، والاختلاف إلى علب المتعة، ونوادي السعادة.

أحلى أوقات عمرك تلاشت في رحى الزمن، وقانون الغاب الذي علمك كيف تتعامل مع الأحداث، وتصنع بأشقها المستحيل، لم تشك يوما عوزك لأحد، كنت مطحونا بائسا، لكنك شامخا كنت كشجرة النخيل مثقلا بعراجين حبك للناس، وسعيك الدائم وراء نشر الطيبة، والخير بين الخلق، ماكنت تجلبه في اليوم بعد العرق والتعب، يتقاسمه أفراد أسرتك مع الجيران الذين يجمعك بهم حوش واحد.

لقد قضيت معهم أعواما طويلة تعانون البرد، وشتى ألوان التسيب، واللامبالاة من مصالح الولاية والبلدية، وعدوكم بان تستلموا سكنات مريحة، وكريمة بعد شهر واحد، لكن ومنذ انهار بيتكم العائلي في المدينة العتيقة قضيت في

هذا الحي الذي يسمونه «حيا انتقاليا» أكثر من عشر سنوات.

وهاقد انفلق لك الصبح، بعد ليل قطبي طويل، ومرير، فحملت النبأ السعيد إلى رطوبة البيوت المتزاحمة عند أقدام المدينة في الحي الانتقالي، شاركوك الفرحة، وهللوا داعين لك الفلاح في حياتك... وفيما أنت تستحضر شريط الأيام القريبة الخالية، هزك اعتراضه حادا، رعديدا ، شرسا، مشددا على مخارج الحروف، والزبد يتطاير من أطراف فمه، أغناك حلمك من مجاراة ثورته، كل ما بدر منك ثمة نظرة كسيرة بلحظ العين، رأيت من خلالها مخلوقا عجيبا، وغريبا، قد تناثر الزبد على جوانب فمه، وبرقع قطعا من لحيته وتضاءل حجمه في غمرة الزبد، فتلاشت صورته تماما إلا من صدى أجش يحاول عبثا تفتيت ما رممه القدر.

لملمت أوراقك، ودون التفاتة غادرت القاعة، وفي ذهنك معالم شقته الفخمة، وقد بدأت تتضح رحابة غرفها العديدة، وتتراقص أمام ناظريك بنمارقها التركية، وخشب أثاثها الجوزي المنقوش، وهو يحدج فيك بنظرات قاتلة، فرأيته قد تحول إلى كائن خرافي يتهيأ لازدرائك، ووأد سعادة أبنائك، قبل أن يكتمل تبرعمها.

العودة

(1)

شرعت جحافل السواد تسحب ضفائرها مدحورة ببريق الفجر المنبلج على بطاح القرية الغافية، الليل ولى، والصباح غدا فارسا لايشق له غبار، وسيما قسيما، يبدد جنبات الظلمة التي مازال بعضها عالقا خلف أشجار الدردار، وبين الوهاد المكللة بتيجان الصخور الطينية المشكلة لعتمة صغيرة قد بدأت ترتجف مترنحة.

انفجر الآذان من مصلى الدشرة الصغير، يرسم في الأجواء أخاديد صوتية رخيمة تصعد في أجواز الفضاء، ثم تنسكب في سمع «عمار» كسيول الفضة.

فرك عينيه، وأزاح اللحاف متأهبا لمغادرة الفراش، تململت زوجته «عائشة» في فراشها الساخن، فيما انشغل هو بموقد النار.. رمى حزمة من القش، وراح يتأمل كثافة الدخان المتصاعد إلى سقف الكوخ المسوى بنبات الحلفاء،

والديس.. أحس الدفء يغمر كيانه، حينما تسابقت ألسنة النار تتراقص في عبث كشياطين الأدغال..

أشعل سيجارة، أخذ نفسا عميقا، وغاص في تأملاته..

– سافر يا «عمار»، ابن عمك «مسعود» سافر من قبلك، لقد هجر هذا الخراب من سنتين كما تعلم، وهاهم أولاده، يدخلون المدارس، و يرفلون في الخير والعافية..

سنتان كانتا كافيتين حين غادر هذه الدشرة، لقد بنى بيتا مريحا واسعا في القرية، فيه الحنفية، والكهرباء، حتى الغاز صار يأتيه طائعا، لم يعد في حاجة إلى الحطب، ولا إلى جلب الماء من الترعة كما تفعل أنت.

– فلماذا لاتجرب مثله ؟هل هو خير منك؟

– جرب، إنك لاتخسر شيئا، فإذا لم تعجبك الحياة في المدينة، فعد إلى دشرتك، لاتستسلم لخوفك، هيا...

كنت تتعلل بعدم رضا والدك، الذي لم يسمح لك بالسفر حين عنفك يوما، وهو يقول لك ، وقد استشاط غضبا :

– حذار أن تهجر دشرتك، إبق هنا، اخدم أرض أجدادك.. ماذا؟ هل تريد أن تصير خادما عند الناس..

ثم يستطرد وقد هدأ روعه ، فيسدي لك نصيحته تلك : ولدي، حذار أن يوسوس لك الشيطان، إنه لعين رجيم.

هاقد خلا لك الجو، أبوك مات رحمة الله عليه، وأنت الآن سيد قرارك، ليس هناك من يمنعك...

هيا لاتبتئس، ابن عمك في انتظارك، لقد اتفق مع صاحب العمل، سيوصلك إلى مقر عملك الجديد، فما الذي يخيفك إذن ...

انقطع حبل أفكاره، بسبب الصراخ الذي أحدثه ابنه الرضيع، فيما قامت عائشة لإعداد القهوة، تناول «عمار» الفنجان من يد زوجته التي لم ترض بسفره على الرغم من شدة البؤس، والحاجة إلى ما يمكن أن يرد عنهم قساوة الطبيعة، وشظف العيش ..

أفرغ محتواه فى جوفه دفعة واحدة، وقام من توه يتأهب للرحيل....

(2)

تداعت التجاعيد في سحنته التي لم تعد مليئة بالماء والشباب، منذ تعتبت قدماه عتبة هذه الغرفة اللعينة، فتح عينيه المنكمشتين، والمحاطتين بهالة زرقاء جعلته يكبر عن عمره مقدار عشر سنوات.. رأى الضوء الخافت الآتي من تلك الكوة الصغيرة المسيجة، فانشغل به قليلا، ثم تطلع إلى صورته المنعكسة في قطعة صغيرة من أصل مرآة كانت

من أهم الحاجات التي لا تفارقه.. أخرجها من جيبه كما يفعل عادة كل صباح، وراح يخاطب نفسه، وهو يتأمل صورته المنعكسة..

- أنظر، ألم تعرف نفسك، هذا أنت بلحمك ، ودمك، تأمل عينيك، هل هاذان المحجران ، عينا آدمي؟ أين ذهب ذاك الصفاء الألق؟ لقد شحب وجهك ، ولم تعد كما كنت من خمس سنين..

لقد انطفأ ذاك البريق الساحر الذي كان يوسم عينيك، ويجعلهما آيتين من آيات الإعجاب، الذي تكنه لك «عائشة» وعذارى الدشرة، كن جميعا يعجبن ببريق عينيك الثاقب، والساحر.. لقد اختفى ذاك السحر..

أين غضارتك المعهودة، لقد ذبل شبابك وترهل عند أقدام هذه المدينة(الغولة) التي لم ترحم سذاجتك، وريفيتك، ألتهمتك المدينة كما التهمت غيرك..

- هل تريد أن تبكي، لن تستطيع.

- أتحداك إن استطعت، هياجرب ..

لكن الدموع أبت أن تتحجر هذه المرة في مقلتيه، فانسكبت على وجنتيه حارقة، فكانت تلك الدموع التي حاولت تطهيره من الوساوس التي سكنته ملاذا، ومرفأ، استعاد من خلاله صور ماضيه الجميل..

كانت الأرض تفوح بالخصب، ورائحة الأحراش تملأ خياشيمه، والثيران أمامه على بعد مترين يجران المحراث، وثغاء النعاج يصدح في الفضاء... تدفقت في جوانبه الحياة إثر استعادته لهذا المشهد الجميل، وشعر برغبة قوية تدفعه إلى الاستقبال، والانصات إلى الماضي الزاهر..

توسعت الصورة أكثر، فرأى نفسه ممددا تحت الكرمة، والماء يتدفق بين قدميه جدولا صغيرا صادرا من الينبوع الذي شهد أحلى أيام شبابه، يمد يده دون عناء، فيقطف عنقود عنب، أو ثمرة تين كاملة النضج عميقة الحلاوة..

كان يعترض طريق «عائشة» وهي رائحة، أو غادية إلى الينبوع، متظاهرا بالبحث عن خروف شرد عن القطيع، أو جلب سطل من الماء، لسقي مزرعته الصغيرة، المشكلة من أحواض الزهر، والورد، والنعناع.

بضع لحظات كانت كافية لاستعادة أويقات عمره الجميلة، الزاهية.. وفيما عقله معلق بتلك المشاهد التي منحت حياته نكهة التشبث بالأمل..

وفجأة تدفق في أذنيه وقع أقدام ثقيلة، كأنها المطارق، فانقطع حبل أفكاره، وركز سمعه للصوت القادم من خلف الباب الذي بدأ يصلصل.. شرع الحارس باب الزنزانة على

آخره، فتدفق النور الباهر إلى ربوع الزنزانة يغسل جوانبها من الشحوب والرطوبة...

– هل أنت على استعداد..اليوم موعد تسريحك قالها الحارس الذي كان يعرف أن «عمار» على علم بهذا اليوم ...

كور أصابع يده اليمنى، وأنزل باللكمة على سطح قطعة المرآة..توقف عند نهاية الدرج، جفف دمه النازف من الجرح الخفيف .. وقد امتدت أمامه حقول القمح والشعير، شرعت الحقول تكبر، وتكبر، حتى غطت مساحة رؤيته، فلم يعد يرى شيئا غير حقول القمح، وثمة درب واحد رآه يخترق الحقول، كان ذلك الدرب يفضي إلى ينبوع الكرمة الأجاج.. ترك ساقيه تضرب الأرض وفي حلقه يبس.. وفي نفسه لهفة... وعلى رأس لسانه مذاق عذب.. ابتلع ريقه ومضى لا يقوى على احتضان فرحته، وهو يردد في سره، أنا قادم إليك أيتها التربة الطيبة، انتظريني، فلن أكرر بعد هذا الغرور الخطأ، إنك ملاذي، وحبي ووادي، أنت قبلتي.. نعم قبلتي، وقبلة كل الذين أخطئوا مثلي، يا أرضى يا طيبة.

الحسناء والوحش

حين أزف دوره قدم مداخلته على غرار العادة شفاهة، فألقى استحسانا وتجاوبا منقطع النظير من قبل القاعة..

أزف وقت فسحة الغداء،فانصرف وسط المشاركين..فإذا بكوكبة من الطالبات قد تحلقن حوله،يطلبن منه إمكانية زيارة الجامعة في مناسبات أخر،قالت له إحداهن، وقد بدا على محياها الاحتشام، والرغبة العارمة في حب المعرفة :

- نأمل أستاذ، أن تزورنا لاحقا، فمحاضرتك، أدخلت المتعة إلى قلوبنا وتابعناها باهتمام شديد.

رد عليهن بابتسامة لطيفة، وشكرهن على المجاملة الرقيقة.

المرأة مثل الزئبق كلما أردت القبض عليها، تسربت من بين فرجات أصابعك حبات صغرى سريعة التدحرج والحركة، ولذا لابد أن تظل بعيدا عنها، تتأملها، ولا تفكر في الدنو منها إلا بقدر، هي كالنار بقدر دنوك منها تلهبك

وتحرقك.. رأى في منامه ليلة البارحة أنه توغل في غابة كثيفة الأغصان، أعشاب أرضيتها المزلجة بماء الندى والمطر المتجمع على طبقات العشب والأوراق، تحت وقع أقدامه يتحسسها كبساط فارسي من الطراز العريق، استلطف الأجواء التي غمرت إحساسه وأدخلته في غيمة من الدهشة والسحر، وكلما تقدم خطوة، غمرته الأطياف القادمة من غبار الزمن الآفل بعجائبياته وأسراره، سمع صدى قادما من أعماق الغابة يندە له باسمه ويدعوه في غنج ونعومة افتقدها في نساء اليقظة، فرأى قصرا منيفا تنبعث من جنباته موسيقى لم يسمع بتقطيعاتها قط في حياته، ورأى النور يشع من زجاج نوافذه، ينبعث من ثناياها كخيوط الفضة الخالصة، ساحرا يأخذ بالأبصار، ازداد شوقه أكثر، وامتلأ حماسا وغبطة.

لاريب أن وراء هذه القلعة ما يداوي جراحه القديمة، فالشهلاء الآفلة التي أشعلت جوارحه بنار لايخمدها ماء زلال، مازال طيفها المعفر برائحة الخصوبة والنماء يغشيه ويسكب في جوانحه قطرات التيه والوله.. حين وقف على عتبة الباب الأول تدفقت إلى أنفه رائحة كروائح الجنة، باردة، وزكية، بخارها سبحان المعبود، يغمر، ويسكر، شعر بنوبات من الدوخة تطارحه بين الفينة والأخرى، نوبات لم

يجرب مفعولها الأثيري قط، وفيما هوغائب الوعي حاضر الجوارح كالسكران وماهو بسكران، لكن رائحة الداخل تفنيه، وتدميه وتجر رؤاه إلى عوالم الدهشة والانبهار، لما انفتح له الباب بطريقة آلية، لم يعد يفكر في العودة إلى الوراء، رأى بحيرة خضراء الأديم ماؤها ورد وأقحوان، وعلى ضفتيها تتشابك فروع من المسك الليلي العابق بالنكهة الغامرة، وحسناء تشع بالفتنة والإغراء، يترامى سرها بين التشابك والالتحام، رآها رؤيا البصر تومض وتختفي، وتنفث على رياض البحيرة بخارا، آه من ذاك البخار.. ليته ما عتب بابها، ليته ما اقتفى أثر الصدى، ليته ما شبر باب روضتها، ليته ما سكر من رحيق رضابها، ليته ما فكر في السفر، أو ركوب ما يركب، ليته ماقرأ أسفار يوليوس ولا رقد على مغامرات أوديسيوس، ولا أصيب بداء القراءة، والإدمان على الاطلاع، والحفر العميق في دهاليز المعرفة، ليته ماكان إنسانا أصلا، بل تمنى في أعماقه أن لو كان حمارا، مثل حمار لوكيوس أبوليوس يرعى في مزارع مداوروش، ويتوق إلى ورده الترياق كي يفر من موبقات البشر وسخافاتهم، ومكرهم و خبثهم و خياناتهم لبعضهم، غدرهم، شرورهم، وآثامهم، وجشعهم، ليته ما قدم إلى هذه الغابة التي لم يرى مثلها في حياته، إنها

لا تشبه الغابات التي يعرف، هذه الغابة شائكة وعميقة الأدغال وكثيفة الأحراش، لكن هذه المرأة الحسناء الباهرة دعته من أعماقها، فكيف له أن يعود، حتما لا يعود، وإذا عاد وقدر ذلك تقديرا حسنا، وضعه موضع الميزان وعاد، فهل كان يضمن أن تصمد معه هذه الحسناء أمام شرور البشر، لم يكن يدري، كل ما كان يدريه أنه غرق حتى الثمالة في غرام هذه الحسناء القادمة من غابات الأمازون، وهيئ له أن تلك الغابة تشبه غابات الأمازون، وأن تلك الحسناء إن هي إلا واحدة من نساء الأمازون، ولما رأى العشق يسيح على وجنتيها وعينييها النجلاوين أبعد هذه الفكرة من رأسه، لأن نساء الأمازون كن لا يبقين رجلا حيا على جزيرتهن، إذن هذه الحسناء التي صارت حبيبة له ليست ككل الحبيبات التي عرف، إنما حبه لها فاق، وتعدى كل الخطوط الحمراء، وهام بها..

لما استبد به العشق مرة، قال في نفسه قيس كذاب لم يجرب الحب والوجد الحقيقي، نعم كذاب ودجال ولو أحب حقا ما مات كمدا، إذن كان رجلا مخبولا لذا أطلق عليه بنوعامر المجنون، أيعقل أن أصير مثل قيس فأصاب بالخبل وبالجنون، لا، لا، هذا ضرب من المحال، أنا امرؤ أعرف المواقع، والمواضع وأعرف المداخل، والمخارج، وأعرف

نقاط القوة والضعف، أعرف أدق التفاصيل عن المرأة، لذا لن أصاب بالخبل وبالجنون، سوف أعود إلى مدينتي طيناء بهذه العذراء التي تسكن الغابة إلا من النعيم الذي يغطيها ويفرش لها كل ألوان الخير والترف والنعيم..

لما تنبه إلى ما آل إليه، ألفى سنينا عددا ذابت من حياته بلا فائدة، فقرر أن يشد الرحال صوب البحر عائدا إلى مدينته طيناء التي وجدها حين دخلها من بابها السابع أنها لم تعد كما كانت مدينة هادئة، جميلة وعابقة بنكهة التاريخ وكل ماهو جميل وأصيل، رأى شرفاتها متسخة تطل منها نساء بدينات قبيحات، منكوشات الشعر، يغمزن العابرين من الرجال والفتيان بغير حشمة ولا حياء، رأى ساحاتها وحدائقها قد أتلفت وبنيت مكانها محلات الهومبرجر، والبيتزا، وحوانيت اللعب والديسكو.. أحس بدوار عنيف ففكر في السفر وليته ما سافر ولاعبر عتبة بيته الصغير الجميل الأنيق، ولا تخطى حدود الوطن، لكن لا مفر مما حدث.. حين مكث أسبوعا كاملا في بيته لا يغادر غرفته إلا لحاجة ماسة، راح يعيد ذاك الشريط، هل فعلا عاش أحداثه وتفاصيله بكل حياتية، أم أنه مجرد حلم تحول إلى كابوس، لحد الآن لم يحسم أمر هذا التخمين، فهو لايعرف أن ما حصل له حلم أم يقظة، هل

فعلا تلك الحسناء التي أسكرته برضابها تغدو فريسة جنسية لحيوان يأتيها من أعالي الغابة، يمارس معها الجنس بكل وحشية دون أن ينبس ببنت شفة، ولاهي تقدم حتى على مفاتحته شهوة الحديث، اللغة بين البشر أهم ما يعتز به الكائن البشري، كيف لهذه المرأة لا تتكلم، لا تتحدث، فقط تمارس طقوسها الأسطورية بجنون وعبقرية خالية من الدهشة والتفاعل الحميمي الآسر، حين تسكر تماما وتغيب عن كامل وعيها يدخل في نوم عميق ولا يصحو إلا مع خيوط الفجر الأولى عائدا إلى أدغال غابته، صارت الغابة بما فيها ملكا له وحده يسيطر على كامل مواردها، وكل الوحوش الضارية تأتمر لأوامره، ولا أحدا فكر يوما أن يعلي صوته عليه، الحيوانات الصغيرة تنكمش في أغوارها حفاظا على حياتها، الكل يخافه في رهبة، ولم يجرؤ أي من الحيوانات الصغيرة التطلع إلى صورته، ظلت صورته تتغير، تتجدد، تتلون حسب الفصول والمواسم يتسلق معارج ودهاليز الأحراش في هدوء متزن، ثم يتبخر ولا يعود إلى الظهور حتى يجئ ليل جديد...

كانت الحسناء تناول الفتى مشروبا تقول له أنه صحي للجسم، وطارد للملل والكآبة، لكنه كان يتظاهر بشرب المشروب، فيميل قليلا ثم يسكبه على شماله..تكررت

الحكاية عدة مرات، ولما يئس من أن لافائدة من عد ما رآه حلما أو ضربا من الواقع، وأن لافائدة من هذا ولامن ذاك، أعتزم أن لا يشغل باله البته، ويمضي إلى حياته القادمة يحذوه ما تبقى له من ماء الحياة غير عابئ بما حدث...

لاحظ غيابها من قاعة أشغال الملتقى، لم يعط أهمية للموضوع، حسب ذلك إغفالا غير مقصود، لكنه تفاجأ بوجودها في بهو الفندق حين عاد مع المشاركين مساء، حياها، ومضى إلى غرفته لأخذ قسط من الراحة، فطبق الغداء الذي فضل المنظمون أن تكون أكلة أردنية خالصة يسمونها المنسف جعلته ثقيلا، بل أوشك أن يستسلم إلى إغفاءة في قاعة الأشغال.

في تمام السابعة مساء رنت عليه، وجاءه صوتها مغلفا بالإصرار والثقة : لا أحسبك اليوم مدعوا، منتظراك خارج الفندق، لم يكن معه ما يبرر هروبه هذه المرة، بل أن إعجابه بها، وميله الغريزي نحو مفاتنها، جعله يندم ليلة البارحة حين تعلل لها بدعوة صديقه.

امتطيا سيارة أجرة، لم تحضر معها سيارتها الخاصة حين انتقلت من بيتها إلى الفندق، هو لا يعرف المدينة، هي التي أشارت على السائق بالتوقف، كانت قاعة فخمة، نسي أن ينظر إلى اللافتة التي علقت على واجهتها، دخلاها،

وانتقت هي المكان وفضلت أن يكون قرب الواجهة المطلة على الطريق السيار.

كالعادة طلبت شيشة، وفنجان بن بدون سكر، مر الوقت سريعا، وهما منغمسان في سيل من الحديث السلس، حتى إذا ما غمرت الأضواء جنبات القاعة، وبدأ الوافدون من العائلات، والأزواج يختلفون إلى القاعة رويدا، رويدا، أعلمته أن الوقت حان للمغادرة، وعند المنعطف الأول للشارع الذي يشمل القاعة، اقترح عليها المشي بدل أخذ تاكسي، فوافقت بامتنان شديد، وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة ..

في الطريق انحنت عليه، همست في أذنه : أحس بالبرد، كان شعرها الغجري المنسدل على كتفيها شلالا متدفقا، تداعب خصلاته جبينه، فأحس بنشوة غامرة أدخلته في فيض من الانتشاء السحري الغامض، أخذ يدها الرقيقة بباطن كفه اليمنى، فمالت عليه، والتحمت قليلا بجسده، وقالت له جسمك يفور بالحرارة، ضمني قليلا إليك، فمد ذراعه ولف خاصرتها، ومشيا في الطريق الغائم تحت الأنوار المتبددة على عارضة الشارع، قال لها أشعر بفيض شعري يكاد ينسكب على لساني، فاقتربت بأنفاسها المنعشة إلى شحمة أذنه، وهمست :

- أرجوك أسمعني

حينها غالبته الكلمات، وساحت على لسانه، ومضى ينشد : الشارع الطويل يغور في الأفق امتدادا

وعلى ضفتيه تشابكت أيدينا

والأذرع حاصرت الخصر الدقيق

آه من ذا الشارع حين تداعى

وخبت عند أقدامه مصابيح الطريق

هي ذي خطواتنا نشوى تبدد همس الشجون

هاقد ارتخيت، وتدليت باهدابك على كتفي

فمالت عليه أكثر وقبلت أعلى وجنته، فرنا إليها بعينين ناعستين مغمورتين في العشق، وواصل

أحسك دافئة

فالبرد

كم هو قارس عض ضلوعي

فدفعته برفق بأطراف أناملها الناعمة، وقالت : أنا التي أحسست بالبرد ، لست أنت، ثم أضافت :

أكمل كلماتك تسحرني،

تضحكين

فيطرب الشارع العائم في العتمة

وفي أذني

وقعت وشوشات الطير، جذلى بنسائم الليل
كنت هناك،
صرت هنا
هيفاء
شفافة
مصقولة الخد
أنت هنا
امرأة من فل
ومن عطر
اشتقت إليك
وأنت معي
عطرا وياسمينا يزين خطواتك الموغلة في التيه
آه منك ياسارة يا ممشوقة القد...

حين أتى على هذه الكلمات كان قد أدركا الفندق الذي بدا نائما تحت أنوار فاترة، نبهها إلى ضرورة عدم الدخول مترافقين، وقبل أن يسبقها إلى تخطي عتبة المدخل، قالت له : لاتنس الرقم معك، كانت تقصد غرفتها.

قبل أن يقدم على تجاوز الرواق الذي يجمع غرفتيهما، فكر مليا، اجتاحته تهيئات غريبة، ومدهشة، هل يقبل عليها، ويبوح لها بما داخله من شعور جديد هذا المساء،

شعور لم يتذوق طعمه قبل اللحظة، كانت له مغامرات عديدة، ومتنوعة مع نساء كثيرات قبلها، لكن لم تكن بهذه الراحة التي أشاعت في وجدانه غيمة من فرح، فرح أثيري متمرد، وعارم..

سار في رحاب الرواق بخطوات حذرة، يعينه على التماسك البساط القرمزي الكاتم لوقع أقدامه، وقلبه بين ضلوعه يرتجف من الخفقان، بدا له الممر طويلا، وبعيدا يغور في البعد.. حتى إذا ما دنا من الرقم الذي نقش في ذاكرته، ارتبك وعاد من حيث أتى بخطوات أسرع، والحيرة تلتهم دواخله، فأحس بحرارة تكتسح وجنتيه، مع برودة صقيعية تكاد تكبل أطراف أصابعه ... عاد إلى الغرفة، وجلس على حافة السرير يصارع رغبة متمردة تتخطى حواجز إرادته، ودون وعي منه، أدلج في غرفة الحمام، وغسل محياه بالماء الفاتر، ثم نظر في المرآة، فهاله ما رأى، وجهه يكاد ينفجر من الاحتقان، وثمة بقع وردية ترتسم في شكل غير معهود على كامل بشرته، شبر الغرفة الفسيحة جيئة وذهابا، خالي الذهن إلا من صورتها الباسمة، لقد غدت صورتها المتفردة في الوسامة الغامقة في السمرة الأخاذة بديلا حقيقيا لتلك المغمورة في خضم الحياة، تلاشت في زحمة الأحداث واضطراب العواصف التي ألمت ببلده، لم

ينس حنانها العابق بكل التفاصيل الجميلة حتى ظهرت هذه الحسناء في أفق حياته، فملأت كل الفراغ وصارت مختزلة في سيحانها وهدوء أعصابها الفولاذية، كم حاول أن يبعدها ويتحاشى فوران عطفها المتدفق لكنه فشل، حتى هرب منها ومن نفسه ذات صباح صيفي مغبش الرؤية والظلال، قال في نفسه لعلها هي عادت إلي بروحها العذبة كي تنسيني وهج الليالي الباهرة، عادت وكفى، أحسبها هي وفيما هو يسترجع ملامحها المتبخرة بأريجها الخالد حتى تناهى إلى سمعه طرق خفيف.

على الباب، تطلع من الثقب السحري فرآها توزع نظرات حذرة خلفها، دون تفكير أو تردد، أدار المدلج، وكأنه يدير عقارب قلبه على إيقاع مفاجئ، سبحت الغرفة برمتها في بخار من العطر، فاح به قدها المتمايس، ألقت بجسدها المتهالك في أحضانه، غاب وأياها في خمائل سحرية أشبه بخمائل العالم الآخر، تنهدت، كانت تصدر آهات، وتأوهات بين أحضانه، وهي مغمضة العينين، مسدلة الجفنيين، مستسلمة، غائبة عن اللحظة الهاربة في ملكوت السماء...حين عاد لها وعيها قبلته من جبينه، ودون أن تنبس بكلمة شفة دست رأسها في صدره، تشممت رائحة أبطه، ثم مسحت بلسانها وشفتيها المكتنزتين صدره الناز

بالملح، وقالت له، وهي بعد لم تصح من شرودها : أنت فحل ممزوج بالنعومة والقوة، أغار عليك من النساء يا رءوف...، قالتها، ومضت تسحب ذيلها المعطن بالشهوة، والعطر والشبق، وقد لاحت تباشير الفجر من خلال النافذة المفرجة، فعاد له السؤال العالق المرير، ترى هل هي التي رآها في المنام، أم أن ما حدث مجرد حلم، أو كابوس، أو أي شيء يختزن في اللاشعور، ثم يطفو إلى سطح المشاعر، ويصير إلى النسيان والتلاشي مع مرور الوقت، وتعاقب الأحداث، وتكاثف الانشغالات اليومية التي لا تنقطع، وحين أعياه البحث استسلم لإرادة داخلية تقول له : لاتتعب نفسك ، الحياة نهر يتدفق، حذار أن يجرفك السيل.

العودة الأخرى

منذ قدم إلى هذه المدينة، التي هام بشوارعها العريضة والنظيفة، وتمنى أن يمضي في ربوعها أجمل أيام حياته، تلاشت شهيته للطعام، وصار مدمنا على التدخين، واحتساء القهوة بدون سكر.. جلس إلى مكتب الغرفة، يسجل بعض الملاحظات، فعادته حين يزور مكانا ما في أي بلد، يسجل أهم المشاهد والمحطات التي تلفت انتباهه.. وفجأة رن الهاتف، هذه المرة لم يكن هاتف الغرفة، كان رنين هاتفه الخلوي، رفع الشاشة إلى بصره فرأى اسمها ... جاءه صوتها مملوء مبحوحا، متقطعا، تكاد أنفاسها تتوقف من شدة مداراة نغص واضح، يكاد يبتر كلماتها، اعتذرت عن ليلة البارحة، أخبرته أنها تعاني وعكة صحية ألمت بها فجأة.. تبددت فجأة الحيرة التي اكتنفته منذ يومين، وقال لها : لا بأس لا داع لأن نلتقي هذا المساء، فصحتك لاتسمح، نؤجل اللقاء إلى يوم الغد، لكنها أصرت أن تلقاه بعد ساعة.

أخبرته بنقطة اللقاء، وأوصته أن لا يحمل هما لذلك فسواق التاكسي، يعرفون المكان، وإن تعذر الأمر، فالقاعة قريبة من دوار الحرمين.

عندما رآها تنزل من السيارة للقائه بالقاعة، أحس برعشة تسري في كامل مفاصله، ابتسمت أساريره، وأطل قلبه الخافق على روضة فيحاء تعانق كيانه، وتثلج وجدانه بأريج الخصب والنماء، داهمته غبطة بددت وعثاء ما أصابه من يومين .. واحتار في سره أيهرع إليها فيقبل يدها كالأميرات المترفات، أم يعانقها بحرارة ولهفة، وهي تتقدم بخطى هادئة، ومتوازنة رغم رشاقتها النادرة.. راودته أحسيس متزاحمة.

كيف يتصرف حين تدنو منه وتقترب بخطاها المتريثة؟ ماذا يفعل أمام هذا الكائن، الشفاف، الرقيق، الذي أحبه بكل وجدانه وجوارحه؟ هل يسرع إلى رائحتها الممزوجة بعبق الورد الفاتح، فيرتمي في أحضانها، كطفل وديع..؟

بعض المارة يقطعون الشارع جيئة وذهابا، خاف أن يخونه اتزانه، أمام قدومها الرافل في التيه، تكاد من فرط السرور أن تقفز من فستانها المنحسر على جسدها البض.. وما إن دنت منه قيد خطوات، حتى رآها، وقد امتلأت وجنتاها،

وشع في عينيها النجلاوين بريق خاطف أضحك وسامتها المقسمة زهرا، وعطرا، وياسمينا.

دون أن يعمل حسابا لمن حوله من مستخدمي القاعة، والزبائن الذين بدؤوا يتوافدون على القاعة، هبط إليها درجة، درجات السلم لم تكن عديدة، أربع أو خمس درجات تفضي مباشرة إلى مدخل القاعة، قبلها بتحنان، قبلة فسرت شوق الشهور، التي غادرته فيها إلى المطار، دون أن تودعه، أو تتيح له فرصة الاغتسال بعطر عينيها المخضلتين بالدمع السخي.. تحرجت، قالت كلماتها المنزلقة من بين شفتيها، وهي تداري بسمة مترعة بالخوف، والوجد، والحرج : أحذر الناس في عمان يلاحظون كل شيء، لم يأبه، ولم يحفل بما قالت، على الرغم من شبه استياء خفيف غشيه لحظة، ثم تبخر.

قبلها، وكانت قبلته ناقصة، ومبتورة، ملاحظتها وهي تداري احتشامها، وتذللها، خففت من التصهد العارم الذي غمره عندما رآها تترجل من السيارة، مفعمة بالثقة، والكبرياء، تتهادى في خيلاء.

لاحظ على محياها الذي تقمح بلون الحناء الهندية الفاتن سرا ساحرا، هو دوما يراها جميلة وفاتنة، يراها بقلبه المعنى

بالهيام استثناء، لا تمتلكه نساء الدنيا، يراها قطعة آدمية صنعها الرب بعناية وحكمة، يراها ولا يرى غيرها..

مالت عليه كما يميل نبات عباد الشمس المائس وسط الحقول البرية.

كان الوقت أصيلا، وقد شرعت الشمس تميل نحو بحيرة المغيب في استرخاء، لطف الجو هذا المساء، وانداحت الحرارة الشديدة التي غطت سماء عمان هذا الأسبوع.

بدت له القاعة أنيقة وجميلة، وقد عانقت واجهاتها البلورية المطلة على الطريق السيار نبات اللولب، وشجيرات المسك.

وسع لها، كانت هيفاء كالعادة، فارعة، تبدو للناظر المتطفل فرسا جموحا، تكاد تنفلت من مياستها السائلة في عذوبة ومرح، رنت إليه بنظرات ذابلة، تسبقها بسمة تنفرج على أسنان كأنها العاج، مشوبة بصفرة زادتها تناسقا، وانسجاما مع لون بشرتها المائل إلى السمرة الأمريكية.

أشارت عليه بالاختلاف إلى طاولة قرب الواجهة البلورية، المفتوحة على الشارع الرئيسي، ولما لاحظت أن المكان الذي اقترحته لم يرقه، تركته ينتقي طاولة أخرى، كان يود أن يفضفض عن مكنوناته الضاجة بالأسئلة، واللغات المتداخلة، كان يود أن يفهم دواخلها، ويعرف طبيعة تفكيرها، ربما ما

يحس به إزا ءها لم يكن حبا بأتم معنى الكلمة، ربما كان بحثا عن سر تقلبها ، قد تكون بحضورها الممتلئ حينا ، والخاوي من السر العجيب الذي يجلده باللهفة، والحب حينا آخر، سببا لا شعوريا ، في مطاردة مشاعره ، لإدراك سر تقلبها ، ربما هو الحب نفسه.. ربما شيء آخر لا علاقة له بالحب، لقد أضناه البحث في سر تناقضها المزدوج.. مرة صريحة كماء الفضة، تخرج كلماتها المدهشة العابرة للفصول، والأمكنة، فيطيب إلى ريحها ، وتتحرك في أعماقه الرغبة في التشبث بالحياة...

ومرة عميقة، كبئر سحيقة القرار ، لا يدرك امتداد عمقها ، مهما فاضت جوانحه، وسال لسانه بالطلاوة، وسحر الحديث.

أومأ إليها أن يختلفا إلى منضدة بعيدة عن ضجيج السيارات العابرة بسرعة جنونية الطريق السريع، فأذعنت، واستسلمت في مقعدها، كأميرة كاملة الأوصاف، والأناقة.

فتح لها قلبه، قرأ عليها أشعاره، حدثها عن مشاريعه المنجزة، والمؤجلة، وهي تستمع مطرقة، مسدلة الأهداب، من حين إلى حين ترفع عينيها الباسمتين، ولا تعلق..

تذكر هروبها وتمنعها ، وخوفها من مجيئه صيفا إلى

عمان، تذكر، أن زوجها السابق وراءه قبيلة، مازالت تراقب خطواتها حين تزور عمان، وتقتفي أثرها أينما حلت، تذكر تمردها الذي يذيب، ولا يذيب، تذكر امتلاءها بالشوق والحنين، تذكر الرسائل وما تحمله من تناقض، تذكر كل ذلك، وكتب شيئا..

اقترح عليها أن يسمعها ما كتب قبل مجيئه إلى عمان، ففرحت، وضحكت أساريرها..كانت ترتشف قهوتها المرة وبيدها الأخرى مقبض الأرجيلة، تطلع نفسا، تسبح، ثم تعود، وهي تستمع، غائبة في غيمة من دهشة وذهول.

حبيبتي ملاك معفر، بالعطر وبالخطايا
إذا نطقت، تدفق من ثناياها الصدى
مزامير داوود، والخلاخل
حبيبتي امرأة، مراهقة لكل العصور
لا يعرف الحب طريقا إلى قلبها
لاتمنح الحب، وحبيبها دوما معذب
فضاء روحها غائم، معتم، مجهول الزوايا والفصول
حبيبتي صادقة، عارمة، لكنها طاغية
تتقن فن القول، والحكايا
في ساحة الحب، مقاتلة، ومهادنة، راغبة
تذوب كالشمع في غيظ اللظى

سهوا لكنها لا تعترف
حبيبتي تحاصرها القبيلة
قبيلة عجبا قدت من حجر
سورها عملاق، تدكه الأشواق
حبيبتي، تائهة، وملهمة، شائكة الدغل
لكن رضابها واحة وعبير
حبيبتي غيمة من فرح
نامت، وحين صحت، استوت حالة حزن، ومضت
زرعت شوكا وتينا، وبقايا عسل من طحين
سوت المزامير، والمرايا، وأناشيد الصبايا
كي تعود، لكنها لم تعد
حالة عطر، كانت، تهادت، تسامت، وتساوت
بحبات الرمل، وأريج الخزامى
كي تحمي حبيبها من طلقات القبيلة

حين فرغ من القراءة، ابتسمت ابتسامة عريضة، وهي تعلق:كلمات جميلة، فيها صدق، لكن لم أفهم بعض تراكيبها، أنت تعلم أنني لا أتذوق الشعر كثيرا..

سقطت كلماتها على شغاف قلبه كقطرات الحديد الذائب، أحدث تعليقها شرخا في كيانه فلم يعلق حتى لا يفتضح ارتباكه، وبحيلة وجه طرف الحديث، سارا إليها أنها هي،

هي، لم يتغير فيها شيء، حتى طريقة مسك مقبض الأرجيلة لم يتغير، أخذت نفسا عميقا، كأنما سحبت روحها معه، وأطلقت سحابة من دخان غمرت تقاسيمها، ثم صوبت كاحلتيها صوبه، وقد انتشت بهذا النفس انتعاشا بدا على كامل حركات محياها الجميل، وقالت :

يا دوبك أربعة أشهر، أنت نسيت وإلا إيه؟

طبعا لم ينس، فالأربعة أشهر التي مضت دون أن يراها، أو يلقاها، عدت أربع سنين في زمنه النفسي، كان يكتب لها كل يوم رسالة إلكترونية، وحين ترد في اليوم نفسه، يرد دون تأخر، لأجلها سعى إلى إدخال خط أنتيرنيت شغال أربعة وعشرين على أربعة وعشرين، يفتح الكمبيوتر ليرد على رسائلها، أو يقرأ رسائلها القديمة، ثم يتصفح اليوميات الوطنية، وحين يقرر الانسحاب يعود فيقرأها ثانية.

كانت كلماتها تسكن قلبه وإدراكه، وهاهي اليوم أمامه تدخن الشيشة، وتعبث بمقبض الأرجيلة غير مبالية، بما يتوهج داخله، لاحظ عليها هذا الفتور، كان حدسه غير مخيب هذه المرة.

طلب منها أن تحدثه عن طفولتها وماضيها، فأخبرته أنها لا تحبذ الحديث عن نفسها، وأن ماضيها لم يعد مهما في

حياتها ، فمشاغلها ، واهتمامها باللحظة الراهنة هو كل ما تحسه وتحياه ..

ولما رأته يستمع بذهول، وشبه حيرة أدخلته في هالة من وجوم، قالت له :

إننا نختلف عن بعض، فأنا واقعية، أمارس حياتي بطريقة غربية، وأنت شرقي العقلية، والتصرفات، لم يعلق تركها تتحدث، لأنه في واقع الأمر عاد إليها هذه المرة، لاليجدد معها تلك المغامرة الجسدية الساخنة، إنما ليكتشف حقيقتها ، من الداخل ..

عرف أنها لا تؤمن بالحب، والحب عندها خرافة، جربته مرة واحدة في حياتها حين كانت طالبة بالجامعة التي تشتغل بها اليوم، وأنها لم تحب أحدا من ذلك الوقت، أوصدت قلبها على أي عاطفة يمكن أن تدخلها كما قالت في فضاء لاترى من خلاله الحياة كما هي، بل عدت الحب سابقة في هذا الزمن، فعصر الحب انتهى حسبها ، لم يشأ أن يذكرها بشيء جمعهما في السابق، ووحد زفراتها بأنفاسه ... تركها تتحدث، وكأنه ألفى ضالته في هذه اللحظة التي تزيل عن قلبه كل ضباب، وتبدد الغبش الذي ظل يخطئ بصره طيلة أربعة أشهر..

وكأنها شعرت بما كان يدور بعقله، فقالت له بثقة، واعتداد :

أن الذي حصل بيننا مثلا في الزيارة السابقة، لم يكن حبا بأتم معنى الكلمة، أنت فسرته على أنه حب، وكنت صادقا في أحاسيسك اتجاهي، في حين حسبت الأمر عاديا، لم يعدو أن يكون مجرد مغامرة جسدية، ولست الأولى ولا الأخيرة من عاشت تلك اللحظات المدهشة، قد تحصل مع أي رجل وامرأة تجمعهما غرفة واحدة، شيء طبيعي أن تستجيب الغرائز في لحظة ضعف، فالإنسان كله غرائز، والمرأة في مثل هذه الحالات لاتستطيع مقاومة ما يعرض عليها وبخاصة إذا اطمأنت إلى الطرف الآخر... وهو الفرق بيني بينك، أنت اعتقدته حبا فزدت تمسكا بي، أما أنا، فحسبته نزوة عابرة لا غير، لا أخفي أنني استمتعت بلقائنا أيما استمتاع، ربما لم يحصل مثله في حياتي قط، لكن لمجرد ما صحوت على واقعي، تيقظ عقلي، وأنا من الصنف الذي لا يلغي عقله، إلا في حالات نادرة، بعدها عدت إلى قلعتي، وأوصدت الأبواب أمام تلك الأحاسيس التي تقيد حريتي، وتجعلني أسيرة عواطف أنا في غنى عنها، فماذا أجني من علاقة روحية ، تسبب لي الهم والنكد؟

ثم استرسلت متسائلة، هل مازال من يحب بهذه الدرجة في عصرنا ؟

رنا إليها وقد كبلت لسانه تصريحاتها ، التي لم ينتظر أن تكون بتلك الصرامة والحدة في فهمها للحب..

ففهمت مغزى تلك النظرة العاتبة، واستطردت، حقيقة أنا محظوظة، لأنني وجدت من يحبني بهذه اللوعة، لكن حبك صراحة، أقولها لك ولا تغضب، بقدر ما أدخل السرور إلى قلبي، عذبني، وجعلني أشعر بالمسؤولية لما آلت إليه حالتك..أيعقل أن تحب بهذه القوة؟ أكاد لا أصدق.. حياتنا في إسبانيا غير حياتكم في بلاد المشرق، أنت رجل شرقي، تنظر إلى المرأة نظرة موحدة في كل شيء، تراها لك لوحدك، لا يشاركك فيها أحد ، وتريدها أن تستجيب لرغباتك في كل آن، وهذا أمر مستحيل عندنا ، فالمرأة سيدة نفسها ، تحب الحياة حقا ، وتسعى أحيانا لطلب ما يحيي فيها الرغبة في التشبث بها ، لكن ليس على حساب عقلها... مشكلتك أنك صرت أسير عواطفك، لاتدع مجالا للتحرر والخروج من الدائرة التي أودعتك فيها نظرتك الأحادية للمرأة، الحياة في إسبانيا غير الحياة عندكم، إن تركت العنان لعواطفك، فستجد نفسك تمضي إلى الخلف بدل التقدم إلى الأمام، المجتمع الإسباني مجتمع لا يرحم، كل شيء بثمن، حتى

العواطف عندنا صارت بثمن، لا تلمني إن صارحتك بهذه الحقيقة، فالمشكلة تتجاوزني، وتنشئتي هناك لها تأثيرها في تركيبتي الذهنية وطريقة تفكيري، وفهمي للحياة غدا جزءا من الفهم العام لأي أوروبي في بلاد الغرب، حاولت مرة أن أعيش مغامرة عاطفية جميلة، ونظيفة، وصادقة، فتعذبت، وتألمت وصرت عالة على نفسي، وعلى المجتمع الذي أعيش فيه .. منذها أوصدت أبواب قلبي، وعدت إلى قلعتي، أراقب الحياة من بعيد ليس كطرف فيها وإنما كمتفرجة، أتابع ما يحدث دون أن أقع أسيرة العواطف، حتى العواطف في زمننا هذا لم تعد تجدي نفعا، فلتكون جديرا بالاحترام، تلزم من حولك ينظرون إليك نظرة احترام وتقدير، ويعملون لخطواتك وكلماتك ألف حساب، لتصير إلى هذه الدرجة من الترفع والكبرياء لا بد أن تضع عواطفك في ثلاجة ....

لا تلمني أكيد هذا الكلام جديد عليك، ولا يعجبك، لكنها الحقيقة، والحقيقة أقوى من أن نخبئها أو نداري جوهرها عنا في هذا الزمان .. إن فهمتني يسهل تعاملك معي، وتصير علاقتنا سلسة التواصل دون عتاب حينها يلفي كلانا حريته وراحته النفسية، ولا تدع العواطف

تسيطر عليك، ولا ترغمني على ذلك، فحين أشعر بالحب الذي أتاك ولم يأتني حينها سأخبرك، وربما سأطلبك في أي مكان، ولو كنت في أقاصي الدنيا، دعنا نستمتع بهذه الجلسة إذن، وحدثني عن مشاريعك، أليس هذا أفضل لي ولك؟.....

تركها تفرغ ما في جعبتها، وتتقيأ ما كان مخبوءا في أعماقها، دون أن يقاطعها، أو يبدي اعتراضا لرأيها في الحب الإنساني الرفيع ولا في أي ما صدر عنها من حكم حول علاقة الرجل بالمرأة، تفادى ذلك حتى لا يدخل معها في جدال لا يوصل إلى نتيجة، فياما بحث عن هذه اللحظة التي كشفت له المستور، وفتحت عينيه على عوالم واضحة المعالم بعد أن غبشتها فكرة الحب أو الذي هيئ له، سمعها بكل وجدانه، وكان مرتاح البال لأنه اكتشف أمرا سيسهل عليه فكرة قطع التواصل، رآها وكان تخمينه خاطئا حين توهم أن من تجالسه الآن لا تصلح أن تصير مصدر إلهامه، وليست المرأة التي يمكن أن تلهمه بالطاقة الإبداعية التي تداهمه من حين إلى حين من حيث لا يشعر، رآها عادية بكل المقاييس، امرأة كأي امرأة وكفى، وما أكثرهن في هذا الزمان، بل عدها من شاكلة اللاتي يطاردنه أحيانا

بالغنج والإيماءات الموحية والمحملة بوهج الشجن اللحظي العابر الذي يذوب لمجرد ماتتلاشى الفرصة المتاحة في الزمان والمكان.

وحين ألقت بما في جوفها، قال لها أسألك من باب الفضول لا غير : أقرأت عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم؟ ضحكت حتى انكشفت أضراسها، بدا فمها هذه المرة كبيرا، واسعا، لأنه لم يرها تضحك بمثل هذا الاتساع في شدقيها، وربما تكون حالة الانتشاء التي طلعت من سحبها نفسا عميقا من الشيشة إلى مخها سببا في هذه الضحكة الغريبة، المتسعة بحجم الشبر.. أحس بنفور بدأ يتداعى في داخله، وشبه اشمئزاز شرع يثير في كيانه الاستياء، والشعور بالضيق والملل..ثم خطر في باله أن يتركها تتقيأ ما خزنته طيلة هذه المدة، فتساءل عن سر ضحكتها الغريبة، قالت له :

ألا تدري أن قصة عصفور من الشرق كتبت في عشرينيات القرن الماضي؟

بمعنى أن وقائعها، مضت مع أوائل القرن الماضي، ثم واصلت أضحكتني والله، شكرا لك أحس كأنني لم أضحك من قبل... واعتدلت في جلستها تسوي مقبض أرجيلتها المتدلي على فخدها المكشوف، حول بصره إلى بلور الواجهة، كان الليل قد ألقى ستائره على الأرجاء، ولاحظ

أن القاعة قد غصت بالمترددين، فأومأ إلى غلام الصالة، بعد أن وضع بين يديها السوار الفضي الذي اجتهد في انتقائه من محلات سوق الحامدية ... ولم ينتظر ما يصدر منها من شكر، كان قد قرر قطع هذه العلاقة دون سابق إنذار أتاه الغلام بسرعة، دفع الحساب وقال لها :يبدو أننا لم نحس بالوقت، فالظلمة قد غمرت الدنيا، ألا تشعرين؟

حين مرقا من القاعة، ورأى الطريق تمتد أمامه سابحة في الظلام، بالكاد تبدده الأضواء المنبعثة من مصابيح الأعمدة، تذكر ذلك المشهد الرومنسي، الذي ألهمه ذات يوم، سار معها جنبا إلى جنب، دون أن ينبس ببنت شفة، وقلبه ممتلئ بالأسى، حتى إذا أدركا نهاية الشارع، استأذن في أن الوقت قد حان للالتحاق بالفندق، بدورها لم تمانع، وأشارت إليه بالاتجاه الأقرب إلى مكان إقامته مادام قد فضل المشي، فيما أدلفت في سيارتها، ومضت، وهي تقول له:اتصل بك غدا، ولمجرد ما اختفت عن ناظريه، قرر أن يوقف سيارة أجرة.

في طريقه إلى الفندق أمر السائق أن لايكمل به المشوار، وينزله في جبل الحسين حيث المحلات الفاخرة، والواجهات الأنيقة الجذابة بمعروضاتها المحلية والماركات العالمية، جاء في خاطره أن لابد من هدية ثمينة يقدمها لزوجته

الوفية عربون توبة ومحبة لإخلاصها الدائم وتضحياتها معه طيلة عشرين عاما من زواج ساده التفاهم والمودة، لولا هذه الوعكة التي غيرت مجرى حياته، وكادت أن تعصف باستقرار بيته الزوجية .. وقف أمام واجهة أحد المحلات ذات الماركات الفرنسية المتخصصة في العطور الأصلية المستوردة، سمع ضحكة مجلجلة بقربه، جاءته من الشمال، التفت فإذا بها هي رفقة رجل أسمر يبدو من خلال مظهره أن لم يحلق ذقنه من أسبوع، كان يرتدي بدلة خريفي في عز أماسي الصيف.

عالج النظر إليه بفضول من يحاول اكتشاف لغز محير، كان مخمورا يترنح في مشيه، وهي تسنده بساعدها المكشوف، حتى اختفيا في داخل المحل، حينها أسرع خطاه حتى لا ينكشف وانتقى محلا آخر، وهو يتنفس الصعداء..

تزاحمت بسرعة مذهلة صور عديدة متداخلة، مرت بذهنه كالشريط المتسارع الذي يطوي أهم الأحداث ويعبرها كأن لاحدث، تذكر أكاذيبها العارية، التي سقطت دفعة واحدة كأوراق الخريف الذابلة، بلا رونق ولا حياة، عرف لتوه أن القبيلة التي زعمت أنها تراقب حركاتها حين تجيء إلى عمان لا وجود لها أصلا، وأن الزمن ليس ملكا لها حين تغادر بيتها بحكم الرقابة التي يسلطها عليه أعوان زوجها

السابق.. زاده هذا المشهد إصرارا على ضرورة طيها من حياته وعدها من الأخريات المكررات الكاسدات اللاتي تتزاحم بهن نواصي الشوارع والعلب الليلية.

فمضى خفيفا في مشيه ، يئد الأرض بثبات وكبرياء، وكأنه يولد من جديد تحدوه رغبة ملحة في إنجاز مشاريعه المؤجلة، وأمام ناظريه يمتد طموحه المفعم بالأمل والتفوق ..

أشار بالوقوف إلى تاكسي ومضى السائق يطوي المسافة طيا.. عندما أدرك الفندق، شعر كأن عبئا ثقيلا انزاح من على كاهله، وتراءت له أطياف من النور، تتشابك من خلال الأضواء المنبعثة من خلف الستار، توضأ، صلى صلاتي المغرب والعشاء، ثم استسلم إلى رقاد ثقيل، كأنه لم ينمه منذ وطأت قدماه أرض عمان.

مع آذان الفجر المنبعث من مسجد ساحة العبدلي، صحا من نومه، وقرر أن يغادر... استعاد صورتها، وملامحها الهاربة في زحمة المشاعر الجديدة التي غطت على كل شيء، فلم يستطع ترميمها، كانت مبعثرة، في مخياله، لم يعد قادرا على تمثلها، منذ ليلة الأمس صار أكثر رغبة في العودة إلى بلده، حتى هذه المدينة الجميلة، النظيفة، التي علق بشوارعها وساحاتها، وأعجب بأسواقها، وواجهات

محلاتها، وهام في آثارها الشاهدة على عظمة الأنباط، لم تعد تغويه، أو تثير في نفسه الشجن، والدهشة، والانبهار، صار كل شيء كالحا لا طعم له، لا لون، ولا رائحة.

حمل أمتعته إلى مطار علياء الدولي، صادفه الحظ أن وجد مكانا في الطائرة القادمة من الشارقة باتجاه الجزائر، لأن تاريخ رحلته الأصلية لم يحن بعد، في الطريق استعاد كامل وعيه، ورأى الحياة بعين أخرى، وماهي إلا سويعات حتى ألفى نفسه، قد استرجع التفاؤل العارم بالحب والحياة.. وتزاحمت في خياله مشاهد الماضي مثقلة بالأسى والندم، كانت تمر ضاجة بالوجع، والحسرة، والغيظ، حتى لاحت مدينته النائمة فوق الصخر، شعر بصفاء التنفس، ونقاوة الهواء، وطيبة الناس... استقبلته زوجته الحنون، وهي تهرع إليه، حضنته كما تفعل دائما حين يغيب عن البيت، فرآها، وكأنه لم يرها من قبل، بيضاء صافية المحيا، من عينيها تبرق دمعتان طاهرتان ..

في يومه الثاني أقلع عن التدخين، وعاد إلى حياته الطبيعية، يمارس الرياضة، يكتب، يقرأ، ويرى الحياة بمنظار جديد.

البكاء

وددت أن أصرخ، أصرخ بشدة حتى ينقطع نفسي، وأجرب حبالي الصوتية، أعرف أن حبالي الصوتية لا تصلح للغناء، جربت ذلك مرارا حين كنت صبيا، كنت أغني لوحدي في أماسي الصيف الجميلة، حكاية غرامي لفريد الأطرش، منذ شاهدت الفيلم، جننت بتلك الأغنية الباكية الحالمة، والمليئة بالحب، والوجع والوجد...

كنت أردد مقاطعها بمهارة مخلوطة بالانتشاء، فأتمادى في الغناء،لكن غنائي آنذاك لم يتعد فضاء حيطان الحجرة التي تشملني، لأنني كنت أستحي من أن أغني بين أترابي..

إذن كنت أغني، وكنت أحسن الغناء بيني وبين نفسي، هكذا كان يعن لي، لكنني لم أجرب البتة أن أغني في حضرة الناس، جربت يوما الغناء في حضرة لفيف من الأقران ففشلت، منذها لم أعد إلى فكرة الغناء، وحين يشدني الوجد أعمد إلى ترديد تلك الأغنية الشجية أجعل

ذلك بيني وبين نفسي دون أن يسمعني أحد، وكأنني أسرق، أتلصص، أو أمارس شيئا ليس لي.

الآن أنا بصدد محاولة تجربة البكاء، هل يمكن أن أنجح في البكاء وحيدا كما كنت أنجح في الغناء؟

لعلني أفلح، ولاضير أن أجرب، فكل الأشياء التي لم نمارسها ولم نجربها من قبل قد تستسلم لإرادتنا يوما، وتصير هواية نعمد إلى ممارستها كلما أحسسنا بالوحدة، أو داهمنا الفتور والملل..

عن لي هذه اللحظة أن أبكي ترى هل أحسن البكاء كما كنت أحسن الغناء؟

لاأدري فلأجرب إذن لن أخسر شيئا، ثم أن هوايتي منذ وعيت هذه الحياة التجريب، ففي التجريب دفع للتقادم والرتابة والملل، وفي التجريب إقلاع نحو الأفق ومغادرة طرية للمكان الذي يشدنا بعنف حتى توشك أن تختنق أنفاسنا فنتضجر ونشعر بالقلق والانكفاء، فلا ضير إذن أن أجرب، حينما عنت لي هذه الفكرة تذكرت مقولة صديقي الذي أفل نجمه ولم أعد أسمع أخباره منذ سنوات، كان حين يسأل عن سر تركه الذقن يمتلأ شعرا، فيسويه أشكالا متفاوتة، في كل مرة يظهر على شكل مختلف، مرة بلحية مكتملة،

ومرة بنصف لحية، وأخرى بربع لحية، حين يسأل عن سر هذا التلون والتجدد ، كان يقول وجهي حقل للتجارب، فلأجرب فيه ما شئت مادام ملكي لا يتصرف فيه أحد غيري.

أوقفت أنفاسي، وعملت ما لدي من قوة الإجهاش، استرسلت في الغوص في أعماق نفسي أبحث عن لحظة تصلح للبكاء، لحظة ما تذكرني بموقف جلل، موقف يجعلني رقيقا وشفافا، قابلا للانفجار والبكاء، ولا يهم أن يأتيني البكاء رفيقا، هادئا، المهم أن أبكي وكفى، نعم أبكي كما يبكي كل الصبيان بسبب أو بغير سبب .. حاولت آه كم حاولت لكني فشلت فشلت.

فجربت طريقة أخرى، قلت لم لا أستعيد لحظات الانكسار في عمري، فعمري قد جاوز نصف قرن، ولا ريب أنني أجد ما أصبو إليه، ياما انكسرت، وياما تألمت في صمت وياما داريت الأسى والألم، حياتي جلها خابرها الأسى والشجن، كغيري من الأقران الذين تصعقهم الصدمات لنقص في التجربة ومخابرة الحياة.

لحظة واحدة أجهش فيها بالبكاء، تكفيني تداوي الجرح الكامن في قرار وجداني، قلت أيعقل أني لا أعثر على لحظة، نعم لحظة واحدة تعيد لي اتزاني، أريد أن أبكي كما يبكي كل البشر، فقد أسر لي الحكيم الدرويش :

دواؤك يا ولدي أن تبكي، قلت له أيها الدرويش الطاهر، جربت ولم أفلح، أنصحني وخلصني فلحظة واحدة أتلذذ فيها بنعمة البكاء، تداويني، وتجعلني أستمتع بالحياة كما يستمتع بها الآخرون.

أطرق قليلا، ثم قال يا ولدي، آسف لو استطعت أنا البكاء لما صرت إلى ما صرت إليه، يحسبني الناس معتوها، أو مجنونا، أنت وحدك من منحني هذا الاسم، والسبب أنني لم أجد مثلك لحظة تبكيني ...

ولدي معذرة لا أستطيع هذه المرة أن أمنحك ما تصبو إليه، إنك عزيز علي غير أني لا أعطيك ما لا أملك، لأني بحثت عنه من الأزل فما زادني البحث إلا عذابا، ثم انصرف وهو يلتف ببرنوس ناصع البياض، وغاب في الأفق باسما، يلوح لي من بعيد، حتى اختفى تماما .

فقلت في نفسي، لم لا أجرب وحدي البكاء، إن الدرويش لا يحسن النصح، لأنه لم يجرب البكاء.

استحضرت طفولتي الشقية، ومظالم الحاكم الذي زج بوالدي في غياهب السجن، كي تصفو له الأجواء، فيضم أرضه إلى عقاراته، فلم أفلح. جربت استعادة كل المحطات الغائبة في وعيي الباطن منذ وعيت هذه الحياة، مرت علي

المشاهد والمحطات، الواحدة تناطح الأخرى لكنها جميعا لم تكن تصلح للبكاء.

وحين عدت إلى نفسي في لحظة صفاء، تشامخت في تعاريج مخيالي صورة أمي الرافلة في الحنية، حية نابضة بالحب والسخاء، قلت لم لا أجرب فموتها خلخل في أعماقي آيات الحزن، نضجت فصارت عناقيد من مسك الكلام، أذكر أنني حين قرأت رثائيتي في رحيلها المفاجئ الخالد اهتزت قاعة المسرح، كانت قصيدة باكية ومبكية.. لكنني الآن أستعيد أشعاري وما قلته على حافة قبرها وهي تغيب تحت سخاء الثرى، ورائحة التربة المليئة بسر الحياة والموت.. أصدقكم القول أنني حتى في هذه اللحظة الفريدة في حياتي لم أستطع البكاء.

ولما فشلت، تركت الأمر لخالقي، وقلت عل ربي يلهمني يوما بما يسمح لقلبي الاستجابة فأتداعى في البكاء، وأجهش جهشة قوية تزلزل كياني وتجدد ما اختمر بعقلي من تجهم وصدود طول هاذي السنين.

أريد بكاء عاديا، لا أطمع في إجهاش، كما يجهش الصبيان، أريد فقط بكية صغيرة لا تزيد ولا تنقص في عمر أحد، أعجزتم أيها الملأ في نصحي ومساعدتي على تخطي نفسي لأبكي، بكية صغيرة أطمئن فيها على مشاعري،

لأني أحسني ميت، حقيقة أنا حي آكل وأشرب، وأتنفس الهواء النقي، وأجوب أقطار العالم جيئة وذهابا، ولي خدم وحشم، ولي جاريات في كل البلدان التي زرتها، أنا أعيش عيشة الملوك الأوائل، لا ينقصني شيء، حتى البحر صار لي، المدن، القرى، المداشر، والمزارع والحواضر، المصانع، المحاكم، الملاهي، الطائرات، البواخر، حتى البشر، كلهم أو جلهم لي، أملك وأتصرف في مصائرهم... كل هذا ولا أستطيع البكاء.

يئست من البحث عن لحظة واحدة تعيد لي رغبتي الأزلية في البكاء..ولما نسيت الأمر نهائيا، ولم أعد أحفل أن أبكي، أو لاأبكي، استرحت لكنني لم أنعم براحة القلب والضمير، الوساوس تلتهم ما تبقى في روحي من عبق الإنسان، الظنون والشكوك، والفتن والمناورات، المكائد، الحروب الصغيرة، والكبيرة، وبنات الهوى، وأولاد الشارع، والإنسان الذي لا يملك اسما، هو بدوره يبحث عن اسم يقيه الضياع.. ربما يشبهني، أسبحان الله، هو يبحث عن اسم، وأنا ابحث عن لحظة واحدة تصلح للبكاء...

يئست، فشلت، انتهيت إلى قناعة أن لابد أن أطرد الفكرة من ذهني وأعيش كما يعيش كل البشر، لأنني لم أعد أرى واحدا يبكي..

حتى المآتم تكترى لها ندابات باكيات يبكين بحجم العطاء المتفق عليه، البكاء له ثمن، وثمنه باهظ، الندابات الباكيات صرن عندنا في المدينة التي أسكنها من الأثرياء...

هل أكتري امرأة تبكي لي وتبكيني؟

طيب أجرب، لكن لابد أن تكون كاملة الأوصاف، جميلة، ممتلئة، فارعة الطول مغرية، شهية، وصوتها عذب، لأنني صراحة صرت من كثرة تزاحم النساء في حياتي لا أرى فيهن من بإمكانها أن تدخل الفرحة إلى قلبي، لكنني الآن بصدد إدخال حزن قوي يجعلني أبكي، هل تستطيع إحدى تلك الحسناوات البضات، أو الرافلات في الرشاقة واعتدال القوام، أو البدينات، الفارعات أن تدخلني في موجة عارمة من البكاء..؟

تصوروا لم أفلح.. كل النساء المتعاقبات على صدري، وعلى جيبي لم تستطع واحدة منهن إبكائي، نفرت منهن وصرت أطاردهن، حتى قطعت عيشهن وعهرهن في مدينتي البيضاء.

منذها صرت لا أفكر في أمر البكاء، آكل، وأشرب، وأستمتع في كل الأوقات، دون نكهة أو عبير، تماما مثل الآلة، أصرف على جسدي وغرائزي بدون هوادة، أشتري عواطف الآخرين، وأبتاعها وأتصرف فيها بغير اكتراث،

أضحك على بؤس المكدودين، وأشدهم حتى أرى في جباههم آيات الإذلال، ثم أدفع لهم أو لاأدفع، لا يحاسبني أحد، ولا يقدر أحد على إبداء أي اعتراض، يشار إلي بالبنان ويتقرب الخلق إلى معطفي أو جبتي فيقبلونها، تبركا، وإبداء للخضوع والإذعان ...

لكن وعلى الرغم من كل ما عرفتموه عني وعن بطشي وثرائي وتجبري وكبريائي، فإني أشعر أنني أتعس خلق الله قاطبة، فمناي ومنى عيني أن أبكي وأجهش مرة واحدة في البكاء ثم أرحل إلى خالقي ناعما منعما.

الفهرس

طيناء 7

الصرخة 27

عودة الدرويش 33

الأرق 41

رحيل نوفمبر 47

الوجه الآخر 53

العودة 59

الحسناء و الوحش 65

العودة الأخرى 79

البكاء 97

أنجز طبعه على مطابع
ش.ذ.م.م. مطبعة الشهاب
ع. ڤرفي - باتنة